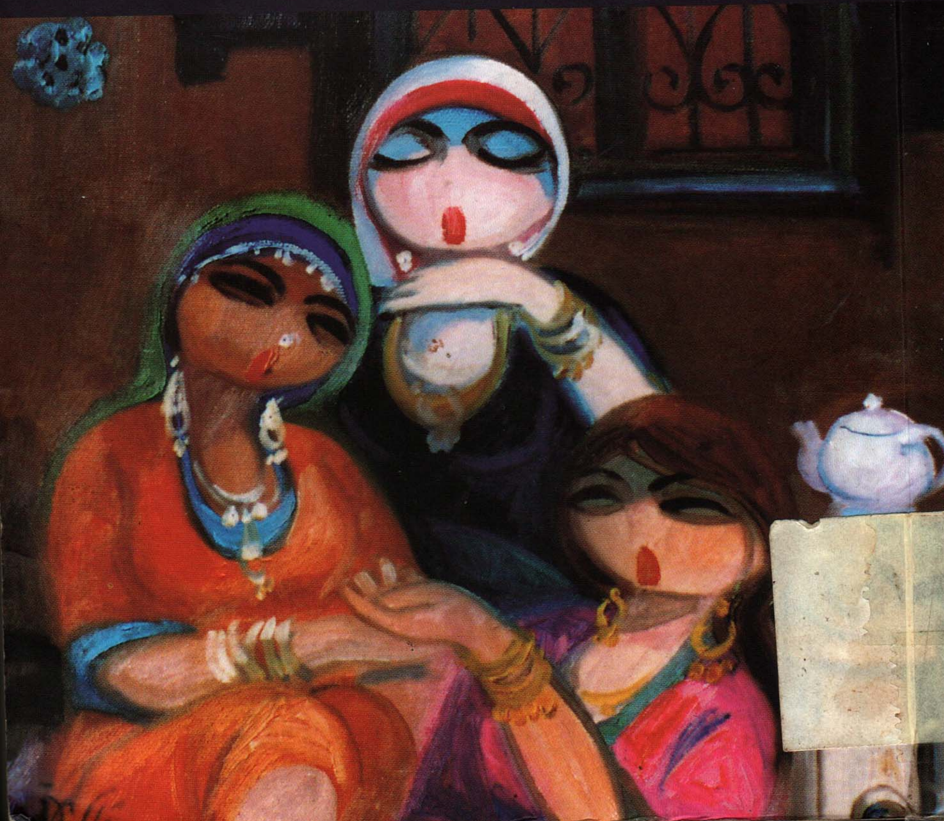
عاليـــة ممـــدوح

حبات النفتالين

روايـــــــة

دار الآداب



حبات النفتالين

عالية ممدوح

حبات النفتالين

رواية

دار الآداب

حـبات النفـتـالـيـن

عالية ممدوح/ روائية عراقـيّـة

الطبعة الأولى في دار الآداب عام ٢٠٠٠

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص. ب 123 4 -11

بيروت ـ لبنان

هاتف: (03)861632 / 861633

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab @ cyberia.net.lb

إهداء

إلى مصطفى

وعلي

وعبد اللطيف

- ١ -

السحب فوق رأسك ، والامتحان دائماً بانتظارك ، انظري الى أبيك فقط . تراءى لك أنه يقود شاحنة كبيرة ، تجلس في الخلف أمك محتكرة الصمت والمرض ، وباقي القطيع كان يلعب داخل المعتقل ، يدمدم قليلاً ثم يسكت .

جدّتك المتفوّقة في العزلة وانتزاع نفسها من بين جميع الوظائف ، وكأنها وجدت للعبادة ، راضية بامتيازها ، أن ترشّنا ويعد كل الوجبات بالصلوات كي لا يحاصرنا الشيطان .

كانت تعرف الأبالسة ، عمتك وأنت ، تطلق عليكما آية الكرسي ، ليهدأ جحيم العمة ، وتتركين أنت صداقة الشر ، فتدعو للعمة :

«الله يهديك ويقرب منيراً منك» وتوحي لك بعزة الايمان .

السيد منير كان إذا غرز أصابعه في زند عمتك ، تبقى تلك الغرزة

أياماً لا تُمحى مثل اللطمة . . يجيء بلا مواعيد ، يخرج بلا استئذان ، يصمت ونعرف أن بعض الخطر حاضر . يثرثر كلاماً لا يُفهم ، قصير ممتلئ ، دائماً يرتدي بدلة كاملة ورباطاً جديداً ، حذاؤه يلمع ، وصلعته أيضاً .

يسخر ، يهزأ ، يتضاحك ، يتغامز ، يقفز مثل جراد المزارع ، يُسرع مثل صراصير البالوعات ، يتحرّك مثل أبطال السينما ، يقرصني من خدي إذا دخل ، يضربني على مؤخرتي إذا خرج ، ويعبئ الصحون بأعقاب السجائر ، يشرب ماء وشاياً كثيراً .

كان يملك روحاً طالعة من المقابر ، ووجهاً لا تعرف إذا كان جاداً أو عابثاً . يبصق على الأرض ويسعل بشدة . تختفي أمك عن طريقه . . يسأل عن أخيك كثيراً . عادل يخافه ، أنا أثيره دائماً ، وجدتي تراقب كل شيء . . .

كنا نراه كبيراً ، خطيراً . . . عرفت عمره التقريبي لما قالت الخالة نجية لجدتك : «لا ، عيني هو كبير عليها . . . يمكن صار عمره أربعين . . وفريدة بلغْت قبل كم سنة» .

تشعل جدتك سيجارتين ويدخنان ، صوت تلك الخالة يتذبذب بين الذكورة والأنوثة ، مدورة ، أربعينية ، تلبس النظارات الطبية ذات الإطار الذهبي ، أسنانها عليها طبقة صفراء ، كبيرة ونافرة إلى أمام ، شعرها تتركه بضفيرتين رفيعتين سوداوين تختلط بهما خصال بيضاء .

تلبس دائماً «الصاية» الطويلة ، المشجّرة ، الحريرية الجديدة ، والمفتوحة عند الصدر . تحتها يتحكم «الأتك» الورديّ أو الكمونيّ أو

البرتقالي ، المشغول صدره بالدانتيل وبخيوط فضيَّة أو ذهبيَّة . تشد «البويمة» السوداء ذات القماش اللماع على جبينها العريض العالي . تفوح رائحتها من أول الطرف ، رائحة امرأة في حالة طلق ، مساحة صدرها العريض المنمش مكشوفة لنا ونحن ننظر إليها كما لو كانت - مدامه- ، والشق الذي يقسم صدرها إلى نهدين عامرين ، «الزخمة» قد شدتهما إلى أعلى . .

بعد أن تهبط إلى الوسط تغرقنا لمعة «البروش» الكبير بفصوصه الملونة ، وتعمي عيوننا الشذرة الكبيرة . . بعد أن تنزع «البوشي» من على وجهها في المجاز ، تمسح عرقها بمحرمة من القماش الطري المشغولة أطرافها بالألوان الزاهية ، ثم تدفنها في عبّها . تسعل طويلاً وتبصق بلغماً كثيفاً . . . تأخذ عمتك منها العباءة الحريرية ذات الخيوط الذهبية النازلة من فتحة الرأس حتى وسط الخاصرة .

في الصيف يكون الحوش مشطوفاً . «المنادر» ذات القماش المشجّر مصفوفة فوق الحصران . . المنقلة تلمع ، الفحم صار جمراً ، «والقوري والكتلي» جديدان . «الاستكانات» ذوات الخطوط الذهبية مرتبة بصحونها وملاعقها الفضية وسط الصينية الدائرية التي طلعت من الصندوق الخشبي العتيق . الحوش مسقّف من الزجاج العريض ذي الألواح الكبيرة ، محاط بالحديد الأسود والرمادي ، مبقّع بالأوساخ «وضروك» العصافير . . . إذا أمطرت الدنيا تذكّرك القطرات بالأبالسة الذين يدورون في رأسك ، وإذا جاءت الشمس لا تزهق أرواحنا .

الغرف موزَّعة على حدود الحوش . . غرفة الوالدين في آخر المجاز . وغرفة العمَّة والجدَّة في أول ممر الدخول . هي غرفتكما أيضاً - عادل وأنت .

هذه المساحة من الحوش كنتم تستقبلون فيها الضيوف . في الشتاء نسد ثقوب الزوايا بالخرق المغمَّسة بالنفط ، نمد البسط العتيقة ، والسجاد المتآكل ، نضع المخاديد الكبيرة ذات الوجوه الكتانية البالية على الأركان الأربعة .

أمي حصتها المدافئ الرمادية ، الصدئة ، تأخذها الى المطبخ وتبدأ من هناك التلميع والتنظيف . . تبدل الفتائل التالفة ، تدهن المقابض القاسية وتعيد كل شيء لامعاً نظيفاً . . توزِّع واحدة على كل غرفة ، تخدِّر الشاي على المنقلة الكبيرة ، تشوي البصل ، تسخِّن الخبز البائت ، وفي ليالي الشتاء الباردة كنا نشم رائحة قشور البرتقال وهي تحترق ، تنشرها على الفحم لتطرد رائحة النفط السامّة .

كل الأوقات كانت الأرض هي المقعد الصالح للجلوس والاسترخاء ، والأحلام واللعب .

أمامنا درجات السلّم التي تأخذنا للسطح العالي ، المتروكة به غرفتان ، الأولى كبيرة مهجورة ، ركن فيها الأثاث العتيق . . والصغيرة كانت تتكوَّم بها الصحف والكتب : ألغامكما ! ! . .

حين تصير الخالة نجية وسط الحوش ، نعرف أن باب الأسرار قد فتح أمامنا ، فإذا ضحكت يهتزُّ حوشنا ، وإذا صاحت : «هدى امسحي الصينية عيني ، النظافة حلوة» .

عادل وأنت وأمك تتقرفصا داخل الزوايا . . أخوك ينشر الصحف العتيقة ، يسحب خيوط البكرات لعمل طياراته الورقية . يعمل مثل رجل صبور . لا يصرخ ، لا يتأفف . هو الأصغر ، الأجمل ، الأسمن ، الأرق . كنت تقسمين العالم بينك وبينه . . هو النظام ، الكآبة ، والانفراد ، وأنت الفوضى ، الصفاقة ، والعنف . خطوتك تقلق أصحاب الحوش ومشيتك تثير الخطر في الشارع . أنت في التاسعة وعادل في الثامنة . هو مسكون بطاقة خارقة على تحمُّل الأذى والألم ، أنت مولعة باقتسام الحسرة والكراهية والحب ، على الجميع وبين الجميع . رأسه قويّ ، عيناه شاسعتان تنبعث منهما طوائف وأقليات ، لونهما في الليل يخبئ صدى الرِّقة ، وفي النهار ترتطم الأضواء في أمواجهما العسلية . . جميل ، مهيب . يقف أمامك تنظرين إليه ، تطلقين عليه الألقاب ، تصوّبين عليه نباحك . . يمضي اليوم واليوم ، واليوم . . وتعرفين أن جماله كان عرسك . . خطوط وجهه ، أنفه ، شفتاه ، صمته ، عموده الفقري ، ظلال حنانه الجانبي ، أعماق تلك المقاومة التي لا يعرفها ازاءك ، كلها تدفعك أن تصيري ضده . . أهوال الأخوة لا تكتب ولا تنشر . . إنها تتقدّم خطوة وراء أخرى . تشعلين المشاعل كلها كي لا يمر وحده . . أنت معه . . لا ، هو معك . . هو الذي يحبه الجميع ، هو الذي يحبك أنت . . أنت التي تتولّين دفعه تحت عجلات العربات ذوات الخيول الهرمة . . أنت التي يدخلك دبيب تلك الخيول في الخوف وهو صامت ، فـ «تكبرين» في الشارع ، تعيّطين . تأخذينه إلى ما وراء المقابر

ليرتعب . . تلبسينه أزياء أبيك الرسمية وتطلقين له التحيّة . . تورّطينه بالأحلام الوحشية ، لم تتأكدي من أيٍّ شيء إلاّ من ذلك الوجه الملوكيّ . لقد أنجز وجه عادل كما لو كان سيعود إلى السماء مبكراً .
كنت تأخذينه إلى السطح ، تضعينه في فم الدرجات وتدفعينه الى أسفل . . لا يرتفع له صوت ولا بكاء ولا همس . . فلا يفشي السر . تثقلك طرق تعذيبك له . . كنت تتفنّين في أسره ، إخبائه . . تسرقين منه النقود التي يعطيها له الوالد ، الحلويات ، القمر الدين ، المشمش اليابس وعناقيد التين المجعّدة التي تخبئها له الجدة وحده . لم يعارضك ، يعطيك أمام الجميع ، وراء الجميع . . إذا ناموا ، إذا خرجوا ، أو جاؤوا . . يحبّك كما لو كنت آخر الأخوات ، يركع أمامك ، يفك أجزاءه ، يصنع لك الحيوانات المجنّحة ، الدببة المخيفة واللعب الأليفة ، ولا يتورّط في الكلام . . تصوّرت أنه لو وقف وصدره مهيأ لتلقي الرصاص ، سوف يغمض عينيه ، تجري دموعه ، ويتوقف نبضه ، وذراعاه المغزولتان باللحم والطراوة لن ترفعا إلى أعلى قائلاً : لا .

من ذلك الوقت وأنت تهبطين وحدك الرواق الجهنمي . . هو يقف في الباب يدفع عنك الأقدام ، والأيدي ، السوط ، والأحذية . . يبكي بدلاً عنك ، فيزداد غيظك أمتاراً ، فجلبت لك كل اللعنات . أنت التي بشَّرت بها ، ودائماً تجدين أحداً تصبينها عليه .

أمك تتحرّك كما لو أنها تتسلّق جبلاً شاهقاً . . تحضِّر الشاي . تضع «البقصم» في صحن عريض مسطَّح ، تقدِّم «المهافيف»

للجميع ، ولا تلوّث أحداً بصوتها ، تردّ على الصياح والهياج الذي تطلقه العمة فريدة بإيماءة موجزة من رأسها . . لقد أعطتهم عادلاً وهدى ، فماذا يريدون منها بعد؟

هي نحيلة نحولاً غريباً ، بيضاء طويلة . شعرها بلون البندق المعفّن . عيناها عسليتان كبيرتان إلا أنهما مطفأتان . لحم وجهها . . ناشف ، وجلدها يابس ، خداها خاسفان وأسنانها معوجّة . حين تضحك تستعيذ من الشيطان الرجيم ، فتقف فجأة عضلات وجهها وتتذكّر أن الضحك نوع من الحرام .

بعد أن تصبّ الشاي وتقدّمه ، تجلس على التختة الخشبية الواطئة مثل حارس خائب . تفتح وتغلق ، تشطف وتلمّع ، تروح وتجيء . تفرغ كل شيء على مهل : الطعام ، الكلام والهيام مع الأب .

سعالها الحاد يخترق الحيطان والزجاج ، تسمعين جدتك وهي تقرأ لها الصلوات ، عمتك وهي تشتمها ، عادل وأنت يحاصركما ذلك السعال ، فنقلتما الى غرفتيهما ، خوفاً ، تحاشياً ، تحسباً ، شكاً .

لا ندري . . لا نعـــــرف . . لا ندرك . . لا نريد أن ندري . . ولا يريدون أن نعلم .

لم ننادها ماما إلاّ في أوقات النجدة والخوف ، فبعدما أنجبتنا أسدلت عَلى حوضها الضيق ستارة كامدة من الكتمان .

استخلصت من أبيك علامة الطريق : إلاّ تجرؤ على الرفض ، فمشت بصدرها المريض صوب الغيب ، إلاّ أنها ظلّت ذات جبين ناعم يحلم ببعض شحم الأرض فيما لو أخطأ طريقه وسمن لها

الخدين والفخذين . جدتك تحبها ، وهي لا تكره أحداً .

تبدأ الخالة نجية بالطواف أمام جدتك . . تمازحها . . تغازلها . . تعابثها بعدد كبير من الألقاب الفخمة . . تلك الخالة لم تفرّق بين أي من النساء . إذا حضرت جدتك تريدها لها ، وإذا جاءت عمتكِ أدخلتها في أوضاع وكلمات جديدة لم تتفوَّه بها من قبل . . وحين تلوح في الأفق نشوة مغايرة كانت تذهب إليها بأكملها ، فلا تتذكَّر الذي مر : الماضي ، الهواجس ، التلعثم الأول . تعجبها الآن جدتك ، فها هي تريدها في حوزتها . . تنثر عليها اللهب وتخرج من جميع الانشقاقات . تهبط بطولها وعرضها وكأنها مصابة بهرش أزلي . . يختفي صوتها وأسمع وقع الدماء . . تنزاح الصاية الطويلة قليلاً عن فخذيها المشدودتين ، ساقاها طويلتان ونحيفتان مثل سيقان النعاج ، تنزع «البابوج» ترميه بعيداً . . تطوي كُم الصاية إلى أعلى ، أعلى ، أعلى ، حتى الإبط . من هناك كانت تطلع رائحة الأبخرة ، العرق ، والمسام المفتوحة . تتمدَّد طيّات زندها المهدَّل ، وشعرها بين الإبط والزند كان طويلاً وأسود . . . وهي سكرى ، تفك البروش ويسقط بعيداً ، العمة فريدة كانت تجلس أمامها فاتحة ساقيها ، وجدتك تستغفر الله الرحيم :

«لا حول ولا قوة الا بالله العظيم» . وتنعطف عبارات :

«حتى كلام الله حلو بلسانك» .

«اسمعي نجية الله يهديك» .

«أخ حتى اسمي حلو بلسانك» .

«اسمعي ، تعرفين أنني لا أحب هذه الحركات» .

«زين ، زين ، لا تصيرين عصبيّة . أقول هل ستمر بهيجة خان؟» .

أصواتهن ترتقي ، رأسك ينزل إلى ذلك الغور الشاسع ويختار علاقته الأولى بين حافات الشق الغامض : الجسد الملغز .

كانت تطلع منك ذبذبات غريبة ، لا تعرفين كيف طلعت ! وإلى أين راحت ! وعلى من ستصبّ !

هؤلاء النسوة لن تريهن ثانية في حياتك . . تحبّين الإنصات إليهن . . هنّ مناجم ذهب ، إذا سافرت لاستخراجه فسوف تشرق الشمس ، وإذا تركتهن في باطن الأرض فسوف يتشقق الباطن عن نسل مغاير .

هل هن الفاسدات اللاتي سمعت بهن؟

نسوان . . أرواح مطليّة بالنار ، وأجساد يمرّ عليها الهواء الطلق فتزهر ، تمرّ عليها الأملاح البحرية فتشبّ . . ويطلق عليهن الخوف أشعته التي لا تضاهى .

يصرخن بوجهك ، يرفعن أنظارهن إليك .

أنت هناك في ذلك الحوش تسمعين أبواقاً تصهل أمام عتبة روحكَ . . والحي الذي يسكنه جسدك كان مضطرباً . . لم تنسحبي . . يجرّونك برفق أولاً ، يضربونك ، أمك تدخل المطبخ البعيد . . كان حياؤها خارقاً في صدقه وسط تلك الأرواح اللامعة .

تعود الخالة نجية للصراخ . . صار صوتها ناضجاً إلى حد أنك لن تسمعي مثله طوال حياتك :

«أريد بهيجة خان» .

كانوا يطلقون لقب «خان» على النسوة المحتشمات اللاتي مررن بين الزمن البغداديّ والوقت العثماني ، فرماهن الأب أو الجد أو الأخ للعزلة والهوان ، فأخذن اللقب والهجران معاً .

« بهيجة» كانت أخت جدتك الصغرى من الأم الثانية . . حلوة مثلها وتحبينها أيضاً .

جميلة ، ريّانة ، طويلة ، عريضة ، متكبّرة ، مترفّعة ، تقف على أعتاب الثلاثين ، جميع النسوة اللاتي تعرفين كنّ يتآمرن عليها . فإذا دخلت في فخ الخالة نجية فلأنها تشبهها ، واذا ما راحت لغيرها فلأن هذا طبعها .

كنت لا تدركين هذه الأمور . . وما كان يحدث أمامك كان يسجّل خطوة ، هي الخطوة التي لا تعرفين الى أين ستقودك؟ فكل تلك الشبكة من الأذرع والأفخاذ كانت تلتقي بعهود غير مكتوبة ، ومواثيق غير مرئيّة . . وما يطلع من هذه إلى تلك كان يربط على هذا النحو كنوع من الغرام الذي لا مهرب من العيش في كنفه .

يطلع صوت عمتك من بلاعيمها حاداً : «أريدك مثل البرق توصلين لبيت جدك قولي لخالتي بهيجة أن تحضر بسرعة» .

-٢-

ذلك الحوش الكبير الذي يبعد عن حوشنا كيلو متراً واحداً .

كانت تسكنه شقيقات الجدَّة من زوجة الأب الجديدة الأرملة التي هرمت فجأة بعد موت الزوج الثريّ ، تاركاً بهيجة وزبيدة وناهدة . لناهدة بنتان أصغر مني وولدان أكبر مني ، لزبيدة العقم ، ولبهيجة غرام النساء . إذا دخلتُ ، الكل يحدِّق فيّ باستعلاء دائم ويديرون رؤوسهم إذا مررت . كنا نسميه بيت الأحلام . نذهب إليه ونحن نلبس أفضل هندامنا . . عمتي تمشِّط شعري وتقرصني من زندي الرفيع قائلة :

«والله إذا كسرت غرضاً هناك أقتلك» .

هناك كنا نذوق الفاكهة المنوّعة . اللحم الطازج ، والأنواع الغريبة من الحلويات والمعجنات المليئة بالسكر ، الطالعة من يد الخالة بهيجة .

حين ترين نفسك في الشارع كان لهيبك يكتمل . هناك ترمين نفسك في الضجيج والخطى المغايرة . تقفين أمام الباعة، تكشّين الذباب عن الجبنة البيضاء الملفوفة بسعف النخيل الطريّ . تسلمين على أبي محمود بائع الجبنة : «مرحبا عمي أبو محمود» . تسرقين خيارة طازجة وتمرة تحرق حلاوتها لسانك . ولا تنظرين إلى أعلى . . أزقّة حيِّك قذرة، قشور البصل والباذنجان، رؤوس البامية وفتات الخبز المعفّن، وبقايا الشاي الأسود المخضرّ، كلها تدخلك في الدهشة . تضربين «هاشم» الأحول بن «رزوقي» النجار، تطلقين عليه اللقب وتركضين :

«ها بعدك أحول يا ول» . يركض وراءك رافعاً دشداشته بين أسنانه، قدماه تدوسان الطين والقشور، فيتزحلق والجميع يضحك .

تجرين وتقفزين فوق السواقي والأطفال . . تمرّين ببيت السيدة «رسميّة» ممرّضة الطرف . بابها على الدوام مفتوح، تضع ستارة بيضاء بها بقع من الزفر والثقوب . تسمعين صوت زوجها وهو يضربها، يأخذ منها أجرة ضرب الإبر . يضحك وهو يصطدم بك : «هلا بنتي هدى، سلّمي على الوالد» .

البيوت البغدادية بدكات حجرية في الخارج . . تحبّين الوقوف على هذه الدكات، تتعرّفين من خلالها على تلك الرعية التي تنتظر وتحسن الوقوف . أنت وقفت على إحداها يوماً، وقلتِ لمحمود ابن بائع الجبنة : «انظر صرت بطولك» .

هناك تجلس النسوة البغداديات يفترشنها بالمنادر والسجاجيد

العتيقة والحصر البالية . بيدهن «المهافيف» والعباءات تغطي رؤوسهن فقط . . مناماتهن تفوح منها روائح البصل والمعدنوس ، البيض والعرق . . يفتحنها قليلاً كما لو أنهن يفتحن مخارج الأرواح . وإذا ما مرَّ غريب ينظرن لبعض ويتلفلفن حتى يعبر .

أبواب الأحواش من الخشب العتيق المبقّع التي تقشّرت أصباغه في أكثر من ركن . حين يهجم الشتاء الكل ينتظر «أبا مسعود الصباغ» . وسط تلك الأبواب ، كانت اليد الحديدية لامعة أو صدئة . نقف أمامها ، نضربها ونهرب إلى الشوارع الأخرى البعيدة . نركض ونبدأ بالتعرُّف على دائرة تلك البيوت التي لا تتذمّر من الجوع . نظيفة ، عالية ، كبيرة ، مسيّجة بالأشجار الباسقة والورود الغريبة ، المبنيّة بالطابوق الملوّن ، المصبوغة بالألوان الزاهية . . بناتهن يرتدين التنورات العريضة المكوية و«البلوزات» ذات الأكمام القصيرة . . الشرائط الملونة تزين الرقاب والضفائر . شعورهن ممشّطة على الدوام ، وجوههن طالعة من الحمام تواً . بشراتهن مضيئة ، دماؤهن تتغرغر بالعافية . . أكلن كل اللحم من السيد «هوبي» القصّاب . هوبي الأربعيني ، السمين ذو الوجه الأحمر والكرش الكبير والصوت العريض البطيء ، الذي يفصفص الخرفان وهو يغنّي كما لو أنه يسقي حديقة .

هذا الرجل كانت أوامره هي الوحيدة المطاعة . وكل من في شارعنا كان يريد أن يجد موطئ قدم عنده . حتى الكلاب والقطط كانت تغتسل برائحة لحومه البضّة الجديدة المدماة .

هناك تعلّق الأبقار والعجول والخرفان . مغسولة من الدم ومعطّرة ، والآيات القرآنية .

ومن يقف أمام محلّه كان يخاطبه بكل ما يخطر على البال من عبارات التعظيم والتبريك .

«هوبي» يعرف الجميع . أشجار العائلات التي تسكن القصور البعيدة المطلّة على دجلة والجسر الخشبي العتيق . أنساب البيوت التي تتحاور مع اللحوم بشكل صامت ، وسجلات الذين يأكلون العظام والمرق ، والذين يرمون اللحوم للكلاب والزبالة .

«هوبي» كان أهم من الملك عندنا ، والملك العراقي كان صغيراً . . صورته مع خاله معلقة وسط دكان هوبي ومظللة ببقع الدم «والجلافيط» ونحن لا نعرف إلاّ هوبي والملك . هوبي لا يبيع إلاّ بعد الظهر . . في الصباح يتم الذبح والسلخ . يبيع الجلود «والباجة» لأبي محمود . وبيض الغنم و«المعاليك» للمطاعم . كل شيء ينطلق من عنده . المشاكل ، المشاجرات والمنشورات السرية أيضاً .

فبعد الظهر كان حيُّنا في «الأعظمية» يتعطّل ، يؤذّن الظهر والعصر والمغرب من جامع أبي حنيفة العتيق . وجوه تروح ، قامات تحضر ، وأذرع تشيل . وهوبي ينزع العكوس والأفخاذ ، المصارين والأكتاف كما لو أنه خلق قصّاباً .

يوم ترسلك جدتك إليه ، ترفعين رأسك إليها :

«بنتي هدى لا تضيعين الفلوس بعدين نظل بلا لحم كل الأسبوع» .

لا تكمل كلامها حتى تصيري في الشارع . عشرون فلساً يخترقك أزيزها . . في تلك اللحظة بالذات تستطيعين الطيران الى الشارع الآخر . اشتري «شعر بنات» ومصاصات ملوّنة ، وزبيباً أسود . عبّئي يديك وجيوبك الفارغة ، رأسك الطائش ، ولسانك الناشف بكل تلك الممنوعات التي ما كنتم ترونها إلاّ بين أيادي أطفال الشوارع الأخرى .

اسرقي واكذبي . اختلفي واختلقي الذرائع ، فالناس في بغداد كانت تمشي في اتجاهين متعاكسين : إذا سرقت فلن تشرَّح جثتك ، وإذا كذبت فإن الله غفور رحيم .

هكذا علمتك جدّتك التي كانت تقف أمام سجادة الصلاة بكل الأوقات ، وما بين الأوقات ، وسط الحرّ والبرد والمطر . شهوتها الوحيدة الله . تتجسّس على نفسها بالصلوات التي لا تنقطع ، تغرق الجميع بالدعوات ولا تفشي سراً ، لا تدبِّر مكائد ، لا تثير فضائح ، ولا تلعب بالأعصاب . تقف وسط الحوش والسطح قائلة :

«يا رب اقطعني اليك ، ولا تغلق لي جفناً وأنا ألتصق بك يا أرحم الراحمين يا الله» .

كانت تستخدم المخيّلة ، الدعابة ، الحكمة ، وقصص الأنبياء . تلمع وهي تضعنا بحجرها - عادل وأنا - وتأتي على سيرة النبي يوسف . . تقف عند هذا النبي طويلاً ، تصفه بصوت جليل : «عيني هو الذي موّت زوجة العزيز» .

تسألينها : «من هي زوجة العزيز؟»

«كان واقفاً وحده أمام تلك الغدّارة واخوته الملاعين . . كانت مثل

إبليس وهو يدفعها عنه . بعدين جاءه الإلهام من عند الله سبحانه وتعالى» .

صوت عادل :

«من يشبه سيدنا يوسف؟» .

«لاأحد يشبهه» .

ما كانت تبعثر الكلام . . تتخلّص من جميع الورطات وتدفعها إلى العلّي القدير . عرفت منها أول الأبالسة- زوجة العزيز- صارت هاجسي تلك الجوالة ، المراودة ، المكشوفة . هناك وقع بصري عليها أول مرة . لمحتها ، سميّتها ، قارنتها ، قسمت ما لديها على الجميع : عمتك فريدة ، الخالات ، العمات ، وكنت أنظر إلى كفي وأجد الباقي أعظم .

يوم قرأت القرآن ، قرأت سورة يوسف وفتحت أمامي ساحات جديدة للأسئلة ، للمعارك .

إما بضربة واحدة أقتلع جميع الشواهد . . وإما أن أدخل العماء مع الجميع .

بقيت تبحثين عن صباحات كسولة لا تذهبين فيها للمدرسة . عن مسافات شاسعة تفرغين فيها ضجرك وحبّك للأسئلة . . فكنت تؤدّين ما يُطلب منك بطريقة مغايرة . . تمنيت لو تكون لك عضلات محمود ، أصابع هوبي ، وساقا أبيك . . أما رأسك فقد ترنَّح طويلاً من الضرب . حشوه بقذى اللكمات والوصايا . . فأخذت فضلات الخطايا ، وبقيت هكذا تنظرين من ثقوب الأبواب وفتحات الشبابيك

إلى زوجة العزيز الأولى ، - العمة فريدة- والخالتان . وهما في حضني بعضهما بعضاً . . تطلع من بين شفاههما سوائل وزلات ، تطلع من لحمهما اهتزازات ومن رأسيهما حقائق جديدة .

عندها تطلع جدّتك إلى السطح العالي ، تأخذ سجادتها بيد والقرآن باليد الأخرى . تتمتم بالدعاء أن يستر الجميع . لا تنظر إلى أسفل ولا تلتفت إلى الوراء . . ساعتها تدخل الخالتان المحبوبتان في الانحدار . . . تتركان الذراعين تلتفّان على بعضهما بعضاً ، الصايتان تتزلقان عن قحط طويل ، كل تلك الأمتار القليلة من أرض الغرفة تدخل في الجنون ، تئنّان ، مقطعتي الآهات ، المواعيد ، الشوارع والناس . يتطاير الرذاذ منهما : «اقتليني عيني بهيجة موّتيني عيوني» .

كان البعض يمشي في هذا الاتجاه كأنه قدر مقدر . إذا نأت جدتك ، فلأن المباراة كانت بينها وبين كائن آخر : روحها . وإذا غابت أمك فلأنها قبلت بحظها الوحيد ، والدك .

أما هؤلاء النسوة فهن يهبطن للجنة ، لا ينتظرن مصعداً ولا سورة مضادة . ذراع بذراع وكعب فوق كعب . . وسواقي البدن كانت تفتح محابس الأشياء . العمّة فريدة تقف وراء تلك الحدود ، منتظرة ، مستعدة ، تدرّبت على الاستعداد . هنا يتم التدريب منذ تشقق الوعي الأول ، فإذا جاءت الساعة فلا تتأخر ثانية . . كل ما حولك نسوان . نسوان . . مدونات في خرائط المدن ، مطلوبات حتى يوم الدينونة . يطرن ، يتمهلن ، يزحفن ، يسمعن الشائعات ويخفن من الطواف في المناطق الحرام : الرجل .

وكلما عبرت درجة تخرج الروح من الدائرة وتجرف معها هذا الكون المحسوب ، المقسم والعصابي ، الرجل والمرأة ، الأولاد والبنات إلى آلاف الأجزاء وآلاف الآهات .

حين تصيرين مع عمتك وجهاً لوجه ، تأخذك معها للشارع للزيارات . يدك بيدها ، وعباءتها السوداء تحدِّد كياناً جديداً وغامضاً وهي تمر أمام الدكاكين ، المقاهي . كانت حركة «البابوج» تدخل الجميع في حزمة من التخيلات . تتمهّل ، تتباطأ . تمشي وكأنها ترقص . الأولاد يبتعدون قليلاً كي نمر . الشباب يطلق صفيره الواطئ . الرجال يتأوهون ، وهي لا تنظر الى أحد . . يهتفون بعد أن نبتعد : «إذهب فداءً للبابونج» .

أتوارى تحت ثيابي العتيقة ونحافتي المفرطة . . غيظي يعلو ويهبط عليّ ، يقرصني من رأسي ، فأقرص عمتي من يدها . . وأفلت بعيداً عنها . . أسير أمامها ولا ألتفت إلى وراء .

انظري وتوقّفي هناك : فبعد أن تغادر الخالتان الغرفة ، تتأكد العمة فريدة أن سعارها سيبدأ ، تدخل وتشعل النور . . تشم الروائح . . تنظر إلى الأرض ، تلمس كل شيء ببطء . وتتقدَّم بهدوء الى الفراش . كل شيء مسوًى ، مرتَّب ، تنحني ، تتفحصه جيداً . تفتح صندوق جسدها وتنشره على الأرض . . ويبدأ الانخطاف .

عمتك تركت المدرسة بعد الإبتدائية . فجلست بالبيت تنتظر السيد منير . أبوك يعطيها راتباً شهرياً ، وجدّتك أيضاً . .

من هناك كانت تراوح بين الحمّام الكبير وبيوت الجيران وبيت

جدك . وبين هذه الأماكن كانت حيويتها الجسدية جاحظة ، وأي اضطراب في هذا الأمر كان يعني الموت البطيء أو الفضيحة الحادّة .

فالسيد منير ، المنتظر المبارك ، ابن العم ، الكبير ، الثريّ العاطل ، والقبيح كان متردداً في خطبتها ، لكنه إذا حضر سيعثر عليها . مناسبة ، فواحة موجودة ، وفاتنة أيضاً .

عمتك كانت أجمل ما في الحوش والطرف . وعبر ذلك الجمال كانت تريد أن تكسر بعض الأقفال . الخوف عليها كان يتضاعف إذا شقّت جفونها بالكحل الأسود . جسدها كان بصحة جيدة ، فخذاها تعومان وتطوفان داخل الملابس الضيقة التي تختارها الخياطة «راشيل» اليهودية ، وركها مرفوع ، ساقاها ممتلئتان ، صدرها مشدود ، واقف ، وثقيل ، رقبتها طويلة ، خداها عاليان مثل أبيك ، وعلى شفتيها السفلى «حبة بغداد» زادتها غواية . شامة على الخد الأيسر تقنع كل الرجال والنساء بفعالية الرغبة فيها . . عيناها . . مشقوقتان بسكين حادّة : لوزيتان ، سوداوان ، حاجباها كثيفان نادراً ما تحفّهما . .

وجهها يتراوح بين ترفُّع الأميرات وندم الزانيات . شعرها بلون الفحم وخصلة بيضاء بدأت تغزوه . إذا ضحكت بزر غمازتان في أسفل الحنك ، وإذا صمتت كان الهواء الذي تطلقه ذا فحيح مبحوح . عمتك تغني أيضاً . صوتها إذا أطلقته بالعتابا والمواويل الجنوبية يتمدَّد ويومض بالوجع العراقي المقيم . تنزل إلى الأرض . . يشم أنفها نشوة اللحوم المشبوبة . كانت تحب رائحة أجساد الغير ،

عرقهم ، أملاحهم . . لسانها يلوب قبل الإقلاع . . ريقها ناشف . عظام صدرها تبرق ، وشرايين فخذيها تتنمل ، تخترقها آلاف الشهوات ، ترتعش وتمدّ أصابعها إلى بطنها . تدور على نفسها في دائرة قطرها الجنس المخفي الضاجّ . تدهن شفتيها باللعاب وتطلق آهة بعد أخرى ، تنظر إلى حلمتيها المحتقنتين ، تفتح أبواب مسامها ، وتحشر في أضلاع هذا الهوس . تتلوى مثل خرطوم اطفاء الحريق ، لا تغطي نفسها . أنت وراء الشباك ترقبينها ، تنشر شعرها مثل -«الكاوليه»- لا أحد ينادي عليك ، ولا أحد يبالي بك ، الخالتان هادئتان . الأولى تمدَّدت على الحصيرة وجهها الى السقف الزجاجي ، والأخرى تلفّ ورق السيجارة الطريّ تلصقه باللعاب وتشعل سيجارتين ، تمد واحدة للنائمة ، تأخذان النفس الأول ، تسعل الخالة نجية : «انا أحبّ سكاير «غازي» بس . أف ، لا أدري لماذا أسمع كلامك؟» .

جدتك تهبط على رؤوس الأصابع من السطح . . صوت المؤذن ينادي لصلاة العشاء ، الخالتان تتحركان للذهاب للحمّام ، تغتسلان وتقفان مع الجدّة للصلاة . الحي يتدثّر بالرهبة . الجدة تستغفر من الشيطان . تتطاير أنفاسها بالدعاء وأسماء الله الحسنى . عادل أول مرة يطلع صوته : «سأصعد أطير الطيارة بالسطح» . أمك تلوذ بغرفتها ، العمة فريدة تنزل ثوبها على فخذيها . الجدة تقف أمام الجميع : «يا رب استر علينا بالدنيا والآخرة» .

عادل صار في السطح ، اليوم الأربعاء ، وأبوك يأتي الخميس .

-٣-

يوم الخميس يوم حمّام السوق . أمك تحضرِّ «صرة» ملابسك . «الفانيلا» النظيفة ، والثوب العتيق . لباس الخام «أبو اللاستيك» ، شرائط كالحة لشعرك . المشط ذا الأسنان العريضة والمكسورة . نعالك «أبو الاصبع» ، لبادة خياطتها مضلّعة بالطول والعرض ، ومبطنة بالقطن ، ايشارياً مربعاً مرشوشاً بدوائر ومربعات . الليفة والصابون . تشدين الصرة وتقفين أمامها .

العمة فريدة هذا يومها . «علاكة» الخوص وضعت بها قنينة الماء ، حبات الإجاص ، بطيخة صغيرة ، الحجر الأسود ، علبة «الطين خاوة» ، الكيس الأسود ، قنينة الريحة ذات اللون الأزرق . الملابس النظيفة وقالب صابون «أبو الهيل» .

جدتك وربو صدرها الذي حاصرها أخيراً ، أمك وصدرها

المريض ، عادل الذي كبر قليلاً ، كلهم يبقون هنا . حمام الحوش عتيق خرب ، لكنه ظل تحت الترميم . صبغه أبوك أول مرة واستبدل برميله المثقوب ، بلّط أرضيته بالإسمنت الأسمر الجديد ، فكان يدخله قبل الجميع ، وتخرج منه جدتك بعد الجميع .

عمتك وحدها كانت تحوم على حمام السوق . مذاق تلك الرحلة من البيت إلى الحمام ، السير في الطرقات ، استدعاء المصادفات الطارئة ، تفحّص الوجوه الجديدة ، وقبل هذا الانصراف عن البيت.. كنا نقضي نهارا بأكمله هناك تلتهمني عضلات الخالات والعمات : «نجية» ، و«فريدة» ، «ولائقة العوراء» ، و«أم ستوري» يفككن طبقات المسام ويدخلنني في الفخ . فأتخبّط وسط أطنان اللحوم والنهود ، البطون والأرداف .

حمّام محلة «السفنية» كان بعيداً عنا ، في الطرف الآخر . ندخل أزقّة ونهبط شوارع . ننعطف إلى يمين ثم يسار ، ومن أول الشارع تطلع روائح النسوة والأطفال ، الأمهات والجدات . عباءاتهن هفهافة ، نضرات يقظات ، خدودهن مدميات وكيفما نظرت ، كانت العلكة تدور بين الألسن . نساء ذاهبات ، نساء آتيات . رؤوسهن مشدودة . أرجلهن مبطبطة . أصباغ أظافرهن تشقّقت . وأصواتهن لا تكاد تسمع .

أمام الباب الكبير المصبوغ باللون الرصاصي الكامد ، يتقاذف الصبية الكرات و«الدعابل» . مصطبات خشبية كالحة موزعة في الأركان الأربعة ، هبّات ساحنة تجيء من الداخل ، امرأة خمسينية

طويلة ، نحيلة قبيحة واقفة أمام حاجز خشبي . صدرها عار ، نهداها مثل كمثراتين ذابلتين ، تشدّ على وسطها إزاراً رطباً ، شعرها طويل ونازل على وجهها ، تصيح على الجميع :

«تريدون أحداً يدلك الظهر أم لا ! ضعوا الأغراض هناك . كم عددكم؟ خمسة ، الخمسة بثلاثين فلساً» .

عمتك- تنزع عنك كل الملابس وتظل هي باللباس الداخلي . تنظر يمنة ويسرة . تدخل الخالات واحدة بعد الأخرى ، يتعرّين بارتخاء . الجميع ينظر إلى الجميع . كل شيء هنا ترينه وأنت مأخوذة بحمى هذه الأجزاء . العيون بلا كحل . الخدود بلا «سبداج» . الشفاه مسترخية ، لا شائبة تشوب هذه الأبدان . الجماجم والعظام .

الأمتار الواسعة من الحمام تصير مصدراً للعب والانشغال .

أول المكان قليل الدفء . أطفال ونساء ينشفّن الشعر والأطراف . وهرج الصراخ العراقي ، همهمة صادرة عن النساء المسنّات . نساء يدلكن بعضهن بعضاً . حين ندخل الغرفة الثانية يبدأ رذاذ البخار بالتزايد ، البخار ، وصوت الخالة نجية :

«اسمعي فريدة أنا لا أقدر على المشي للداخل ، روحي تغيب ونَفَسي ينقطع ، نبقى هنا أحسن» .

الخالة لائقة تردّ : «امشي ، أول ما تصلين تتخدرين ، البخار يطلع البرد والرطوبة» .

أم ستوري تمشي أمام الجميع ، تعرف الطريق ، تعرف الجميع . جارة الخالة نجية ، صديقة الخالة لائقة ، وخياطة الطرف الرخيصة .

تخيط الدشاديش والبيجامات ، يأخذونهافي أيام الطهور والمآتم والأعراس لتطلق الهلاهل و«دق الاصبعتين» .

العمة فريدة لا تعرف ماذا تقرّر . أصغر الجميع ، في الثامنة عشرة . وهؤلاء النسوة يمشّطن جسدها نظراً وانتباهاً :

«أين هدى؟ تعالي حتى بهذه النار تجدين صحبة» .

هناك كنت تشاهدين هسيس الجلود المزدانة بالبخار والماء والعرق . روائح الآباط والمؤخرات ، البول الداخلي ، اللهاث يغمغم بين الشفاه ، والصراخ يشق براميل المياه .

يتسرّب كل شيء من أمامك : الأيادي تأخذك ، تكوّرك بين الأفخاذ ، تنادين باسم كل من تعرفين ، تحلّ ضفائرك ، ترطبين بالماء ، تنقعين هناك ، تسكب عليك طاسات الماء الحارّ ، على الرأس ، على البنية الطرية ، تعولين : من هناك أرسلت أول خطاب مسجّل بالغضب ، شتمت ، تمهلت ، شممت ، تساءلت ونظرت ببذاءة إلى كل تلك التفاصيل . عاريات وكأنهن خارجات من الاغتصاب أو التعذيب . «التختات» الخشبية يضعن فوقها مناشف عتيقة ، يتقرفصن ، أرضية الحمّام تشوي ، وهنّ يتصايحن ، يزعقن ، يتضارب بعضهن مع بعض . لا متاريس في الحمّامات العراقية ، الحدود مفتوحة واللغة الوحيدة التي يتخاطب بها الجميع : اللمس . كأن جميعهن محتجزات وراء السماء واليوم نزلن إلى أرض الحمّام . هناك كسبت أول الاكتشافات وفزت بأول الجولات وصرخت ، لا ، لا ، وسط النعم الطويلة التي كنت تسمعينها من الجميع . هناك فقط

أطلق عليك اللقب الدموي : «هدى نار كبيرة» .

أفلت من الجميع ، أتزحلق بين السيقان ، وقوالب الصوابين تدفعني بعيداً فأنزل في حضن إحداهن ، وجهها مغطّى بالصابون ، فتصرخ : «الله أكبر ، الله يلعنك ويلعن يومك الأسود» .

أخبّئ الصوابين في السطول الكبيرة ، أعبّئ الطاسات بالماء الحار وأسكبه فوق الرؤوس ، أحرق الفروة والجلود ، أبول في الحوض الكبير ، وأحصر بعض الأطفال بين فخذي ، أعزل هذا عن ذاك وأبدأ بتدليك رؤوسهم بالحجر الأسود حتى أدميه . أمام كل تلك الكميات من المياه النظيفة الحارة ، كنت أبصر براءتي الأولى وأتضامن معها ، أخط عليها بالقلم الرصاص وأعترف : كأني طلعت اليوم من الطوفان .

مقاومتي تنضج على نار النفط والحطب الذي يشتعل ويتحوَّل الى مخلوق أتعرَّف عليه تواً ، هدى المغطاة والأخطاء ، الويل والثبور . التي تجر كحيوان لتكمل النعمة الأولى ، فبعد أن أترك قليلاً بين الماء والماء كانت سلالة النساء العراقيات ، تتجمل فتكتمل .

أم ستوري تفرغ على رأسي الطاسات الحارّة ، وبين الخالات كانت الصوابين تدور ، تبرى ، وتلوي ضفائري . أموت بين أصابع أولئك النسوة ، وعيناي تعميهما رغوة الصابون ، الخالة نجية تمسك ساقي كما لو كانت تمسك فخذ دجاجة . عمتي تتنهّد وتنحني على ركبتيها ، نهداها يدخلاني في الخدر . الصابون والبخار وكل الضجيج ، وأنا بيضة طلعت إلى المحيط . أنتقل من حضن لآخر وأرى .

هناك لا نفع للبكاء والرفس والعويل ، فبعد دورة الاغتسال تتركين وحيدة ، حرة ، يرتحن منك ، يدخلن ألسنتهن في أذنك ، يمصصن منها الماء المتروك ، يضفرن شعرك ، وأذياله ، تنظرين إليهن جميعاً . فالبخار في آخر المطاف بلعته العيون ، الآذان والألسنة .

اضحكي وانظري جيداً : الشعر في الأعضاء الناعم ، الأملس ، الخشن ، الطويل ،القصير ، المنتوف ، والأعضاء ترينها دفعة واحدة ، نزع الجميع ألبستهن الداخلية فنظرت بكل عينيك إلى تلك القارة النسوية . الكيس الأسود المخيط بغرز كبيرة وبالخيوط البيضاء يمشي على الظهور أولاً . كل امرأة كانت تدير ظهرها لصاحبتها ، وكل من تنزل فتائل الوسخ أكثر من الأخرى تدلّل على القوة والفتوة .

تدورين معهنّ عندما يقفن . القامات تسدّ الحيطان التي تنضح بحبات الماء . العرق يفتح الشهية لشرب الماء وأكل الفاكهة . أحاديث الجيران والأولاد والأزواج ، وراشيل اليهودية التي أسقطت ابنها الثاني على يد «رسمية أم الزبر» . لا فضائح كبيرة في شارعنا ، ولا فواحش عظيمة في بيوتنا . الرجال يشدون غددهم طواعية على النساء ، والنساء ينتظرن الأزواج على الدكات ، في الأسرّة الحديدية ، على الأرض ، في السطوح العالية ، نصف نائمات ، نصف ميتات ، نصف . . نصف .

عمتك تركض وراءك ، تريدك واقفة أمامها :

«والله سوف أقتلك ، الله يأخذك ويريحني منك»

ترد عليها الخالة نجية : «تعالي أنا التي ستكمل غسلك» .

أتمـهّل في السـيـر ، أقف وسطهـن ، تدوّخني كـل هذه الغـازات والروائح ، تضـرت الخـالة نـجية وهي واقفـة قـربي . أرفع رأسي اليـهـا وأطلق ضحكة عالية . بغتة تلطمني بالكيس على وجهي :

«تضحكين ، أما عيون وقحة ، انتظريني أنا التي ستربيك» .

ترفعني كـما لـوكنت كرة منفّسة . أُحشَر بين ذراعيها ، وتبدأ من ذراعي ، تكبس زندي وتلهث :

«لمـاذا تدعـيني أضـربك؟ ألا تخـافـين من أحـد؟ ، الله أكبـر ، ألا تتعبين؟» تنزل إلى بطني وفخذي : «ضعيفة مثل أمهـا : كأنها تأكل بالدين» .

تكوّرني بين سـاقـيـهـا ، تـمـدّ سـاقـي . شـعـرهـا مبلول ، مـحلول ، طويل ، خـفـيف ، ناعم . وهـي لا ترى جـيـداً ، رمـوشـهـا سـقطت وأجفانها وارمة .

تسـتـسلمـين ، تنامـين . جلـدك صـار خـاوياً ، أُفـرغ من أسـراره . الوساخـة سر هي الأخـرى ، والموت لم يأت حتى الآن عليكم . حتى التاسعة من العمر لم تعرفِي ماذا يعني لك المَوت !

كـان جـمـيع مـن تحـبـين وتعـرفين أحـيـاء أمامك : أخـوك ، أمك ، أبوك ، جدتك ، وأولاد الجيـران . محمود الذي انتقـل إلى المتوسطة ، كنت تطلقين عليه اسم مـحـمـود «أبو مـخطانة» يـركض وراءك يريد ضـربك ، وحـين تصيـران وجـهاً لوجـه تضـحـكين بوجـهـه ، يـمسح مخاطه بطرف الدشداشة . أمهات صديقاتك . . . الآباء . . . و . . . .

ولا تدرين ماذا يفعل الموت إذا جاء .

في الأعياد تذهبون إلى المقبرة التي تقع وراء الجامع . تزورون قبر الجد الكبير . جدتك تقف أمام القبر . لاتبكي ، لاتلطم ولا تنوح . لسانها يتمتم بآيات قرآنية ، صوتها يحوم على ذرات التراب .

تقرأ بصوت عال ويطلع صوتها قوياً شديداً موجعاً . يتمدَّد في مساحات المقبرة ، يدفع النسوة للشهيق . كنت تتفرجين عليها وهي تملأ رأسك بليل الموت ، وكأنها تفتح كل الثقوب في كل الرؤوس والأراضي والأرواح . هناك كانت تتمرّن واقفة بطولها المعتدل ، وقامتها النحيلة وعباءتها النظيفة ووجهها الطالع من السماء : كيف تخفض جناح الحياة للموت .

حين تدعو عمتك عليك : «الله يأخذك» لا تدخلين في التفاصيل . «يأخذك» ، ربما يدفعك فوق الموت فتبدئين أنت بالارتفاع . طولك يزداد ، عضلات فخذك تقوى ، وصدرك بدأ يضربك من الداخل يريد هو الآخر الإرتفاع .

لا تعرفين ماذا حدث لك . ترين نفسك على مصطبة خشبية في غرفة الملابس الكبيرة الباردة ، وأم ستوري فوق رأسك تنفخ عليك هواء ساخناً كريهاً من داخل فمها الكبير ، شفتاها الغليظتان كانتا تتمتمان ببعض الآيات القرآنية . تعرفين أنها سورة ياسين .

حفظتها عن ظهر قلب ، تنفخ عليك عدة نفخات ، وتبدأ بشد شعرك ، تضربك برفق وسرعة على الصدغ . تفرك صدرك ولحم بطنها المجعد كان يلامس بطني تاركة نصفها الأسفل مشدوداً بالإزار المقلَّم «بالتيل» شغل الهند . نهداها المترهّلان يلامسان خديك الملتهبين .

تُلبسك بسرعة . تعصر شعرك بقسوة ، تدثّرك بالمناشف الكبيرة وتضع أخرى تحت رأسك ، تبقين هكذا حتى يطلع الجميع . تنامين مثل الموتى . من هناك تستحضرين الأجساد ، الأفخاذ ، النهود ، الضفائر ، طاسات الماء الحارّة ورغوة الصابون ، تدخلين الجميع ذلك الجحيم وتبدأ قيامتك الأولى . تدعينهن يتصايحن ، يقفزن ، يحترقْن ، ويشق صوتهن السماء . . لا تفتحين لهن نافذة ولا تقرئين عليهن سورة من القرآن . ذاك مكانك ، تصيرين السطوة في بهائها وجبروتها . لا تتدخلين ، لا تظهرين ، لا تهددين ولا تتوعدين . تدعيهن يرتطمن بعضهن ببعض ، تقطعين التيار الكهربائي ، تنشرين الأفاعي في الأحواض ، تنزعين ملابسهن من صررهن اللامعة ، تغطينها بالوحل وتدفعينها للبالوعات . . هناك كانت بكورتي تتلألأ .
حين أصل هذا الحد من نومي ، تكون العمة فريدة على رأسي . بشرتها بلون الخوخ ، أنفها يلمع ، حواجبها مرسومة بالفحم ، عيناها تجولان على البنية النائمة . تتنهد ، تلهث ، تزيحني وتجلس قربي والمنشفة البيضاء تشد صدرها وتنزل إلى فخذها . رأسها مشدود ، وأنا لا أتحرّك مسمرة . أفتح عينَّي وأغلقهما ، أنظر إلى قطرات الماء على ظهرها الحريري وأبلع ريقي . الخالة لائقة تصير قبالة عمتي ، بدينة ، مترهّلة ، بطنها مثل برميل ، فخذاها مصفوفان بالشحم : جلدها لونه أصفر شمعي . وشعر أعضائها أشقر . لا تغطي بدنها : «سأموت من العطش أين الماء؟» . تنحني وتخرج قنينة الماء وحبّات من الإجاص ، تصير أم ستوري والخالة نجية أمامي . وصوت تلك

الخالة يزعق في أذني : «انظري الحيوانة بعدها نائمة ، يا ريت تظل نائمة دائما» .

تنظر موارية إلى عمتي التي بدأت بارتداء ملابسها : «الله يهديها بعدها صغيرة» .

تردّ الخالة لائقة : «لا ، هي نار من يومها الأول . تذكرين من كنا نشربها«الخشخاش» وهي لم تطلع بعد الأربعين . الله يستر لما تبلغ . زوّجوها بسرعة كي لا تسوّد وجهنا» .

من بين أبخرة الماء وأصوات شربه يطلع صوت أم ستوري الغليظ :

«ومن يتزوج هذه الصورة؟ ضعيفة صفراء ، جلد على اللحم ، أقول فريدة ، أخاف . . . عندها مرض أمها لو تفحصوها؟» .

يفحصوني- . . محمود قال يوماً وبيننا عمود الكهرباء في أول شارع حوشنا : «أمك مسلولة» .

ركضت وراءه والحجارة بيدي . لم يهرب من أمامي كما يفعل باقي الصبية . بقي واقفاً وبيدي الحجارة ووجهي مثل نافورة النار : «ابن الكلب» .

لم يختف عن طريقي . وقفنا معاً وجهاً لوجه . أنا أقصر منه . أنا الأنثى وهو الذكر . أنا التي أركض وراءه وهو لا يقوى على ذلك . لا ، كان يقوى على أمور عدة : الركض واللعب والهرب من وجه أبي عندما يصير في الشارع . يدرّسني الحساب مع أخته فردوس . أول مرة أقف وأرمي الحجارة على الأرض وأسأله : «ما هو السل؟» .

«لا أدري ، أمي تقول صدرها مثقوب مثل المنخل»
أنكّس رأسي وأرفعه : «يمكن كلنا صدرنا مثقوب» .
«لا ، فقط أمك . أمي تقول لا تلعب مع هدى أخاف تعديك» .
العدوى ، السل ، العزلة !! كنت أريد أن أرفع رأسي ثانية أمام محمود لكني لم أقدر . كان أشجع أولاد طرفنا . اصطفيته لنفسي ، هذا سيكون رجلي الأول . هكذا كنت حرة طوال تلك الأعوام . نبصق على الأرض ونرى بصاقنا ، هل به خيط دم؟ وحين لا نرى شيئاً نعيّط ، نصرخ ، نركض في الشوراع ، نضرب هذا ونمزح مع تلك ، نسقط عباءات النسوة ، نضرب «سدارات» الرجال ، نطرق أبواب البيوت ونهرب .
كان يردّد دائماً : «أمي تقول كل بنات المحلة مثل أخواتك ، لكن أنت لا تشبهين فردوس ، هي عاقلة وأنت مثل ابليس» .
«وأنت تخاف من ابليس؟»
«لا» .
«اسمع ، نار لو ابليس ، أنت تحب النار لو لا؟» .
منذ ذلك الوقت صار أنف محمود نظيفاً ، دشداشته يبدّلها بالأسبوع مرة . النعلان بقدميه ووجهه الأشقر صار أحمر معروقاً من اللعب والقفز والجري . كنا نبدأ من الساعة الثالثة ظهراً حتى الساعة الخامسة عصراً . ندخل حواشنا ، نشرب الماء ، نتبول ثم نعود للشارع .
البنات يلعبن «طم خريزة» نجمع التراب ونرشّه بالماء ونصنع بيوتاً

صغيرة تضمّ الخرز الملوّن الذي نسرقه من الجدّات والآباء . خرز أحمر وأصفر ، أسود وأزرق . على بعد أمتار كانت أصواتنا تتعالى «هدى أنت تغشّين باللعب» .

كان نجاحي في الشارع نوعاً من الغشّ . أحدس عدد الخرز المدفون في الطين غالباً حتى آخذ كل الخرز من البنات . أضعه في الكيس الذي أشدُّه على خاصرتي . الفوز يضعني في المقدمة . محمود في الطرف الآخر يلعب «المصرع» ويفوز . «مصرعه» يظل يدور على نفسه ، يدور ويدور وكأنه في حالة عصيان دائم على التوقف . لا يتمايل ، لا يهتزّ ، يشدّ عليه الخيط بقوة ثم يقذفه بعيدا على أرض مستوية . نقف جميعاً أمامه ، والآخرون يفعلون مثله ، ستوري ، نزار ، هاشم ، وعادل أيضاً . نتفرَّج ونتصايح . نغنّي لمصرع محمود ألاّ يتوقف ونهزأ من مصارع الآخرين . يطلع دمنا وتشق أصواتنا شبابيك الجيران . نصير مثل المجانين . عادل معي وفردوس .

«يا رب لا تدع مصرعه يقف يا رب» .

ويقف مصرع محمود حين يرى أبي .

كل أسبوعين ينزل أبي من كربلاء بقطار الفجر ويصلنا عصراً . يخترقنا ظله واسمه وصوته . نلتصق بعضنا ببعض مثل الجراء مذعورة . لا ينفع إذا دفنّا رأسنا تحت الوسادة ، أو في حضن الجدة ، فقد كان بمقدوره أن يسمع نبضنا وهو في أول الشارع ونسمع ما يلوب بين أسنانه ونحن على وشك السقوط . حاملاً حقيبة صغيرة ، عتيقة

بلون الشوندر البائت ، الجميع يضرب له السلام ، يقفون إذا مرَّ ، يصمتون وهو يعبر . شارة المعاون في الشرطة تدخل الشارع في الصمت والترقّب . المسدَّس مربوط بحزام يتدلّى بين الخاصرة والورك ، الآلة تلك كانت تفعل فعلها في البيت والطرف ، به يقتل راحتنا ، به يكتمل هو فيوفّر الرعب والاحترام ويخلص عنده القلق والصراع .

إذا مرَّ النسوة يفتحن عباءاتهن ليرى الأجساد تتلاطم ، العيون تتغامز ، والأسنان وهي تصرّ على الشفاه . الرجال يشدّون الأحزمة على الدشاديش الزرقاء والبيضاء والمقلمة . يعدّلون أغطية الرأس ويعزمون عليه الوقوف والتحية . يمرُّ وهو لا ينظر إلاّ الى أمام .

«السدارة» فوق رأسه ، وعلى كتفيه نجمة واحدة ، والبدلة الكاكية كانت تبرز طوله الفارع . «البوط» الأسود الطويل يلمع دائماً ، يتجنّب القشور والبالوعات . يمشي وكأنه طاووس . رشيق ، وسيم ، أسمر ، عيناه حادّتان بنّيتان متهوّرتان . أنفه طويل وشامخ مثل أنوف آباء الشوارع الأخرى . شفتاه رفيعتان مزمومتان ، مدميتان على الدوام . وجنتاه شاهقتان وشعره بلون الفضّة العتيقة : ناعم ، أملس ، وممشط إلى الوراء .

قبل أن يصل تكون جدتي قد دثّرتنا بالبطانيات . تغطّينا بسورة ياسين ، وحين يسأل عنّا تردُّ عليه : «أترك الحواوين نائمة» .

-٤-

«المصرع» مُرمي في إحدى الحفر . وبيوت الطين داسها أبي ، الخرز تبعثر من على خاصرتي وتناثر بين السواقي والزوايا ، وداس الباقي بقدميه . البنات يتعثّرن باضطراب حتى بيوتهن ، الأولاد يحتمون وراء أعمدة الكهرباء . عادل وأنا نتكوَّم بين ذراعيه ، مسممين بالغضب الذي ينفثه من مسامه . صوته يتطاير ويصل حدود الحواش الأخرى . يقذفنا وسط الحوش :

«بنت الكلب ، ترقص وتغنّي بالشارع والولد يحضنونه ، لا أدري ماذا يحدث ورائي؟» .

أمي واقفة على باب غرفتها مروَّعة ، تسعل وتضرب على صدرها بلا صوت . جدتي وعمتي تطلعان من الغرفة تصيران أمامه . عادل مثل طير مريض يتشبث بثياب أمي ، وأنا أقوم وأقف بين ركلاته .

أمسكه من البوط اللماع وأشده من هناك ، أتكوَّم بين ساقيه وهو يتحرّك بي يأخذني من هذا الجانب ويقذفني للآخر ، وبلاط الحوش يمتلكني ، مأخوذة بصوته الذي يهبط عليّ كالرصاص .

عندما نراه قادماً أو مغادراً ينتقل من صورة الأب إلى عنفوان الرب ، كنا نجد الوسيلة الوحيدة كي يهدأ تماما ، حين يكون أحد أمامه . . ودائماً أكون أنا ، التي تفجِّر مواهبه ، بدءاً من ملابس الشرطة ، إلى آلة القتل . إلى البوط الذي يلغي كل الأحلام : «لا يا با لا . . الله يخليك ، بس هذه المرة !» .

لم يكن يخيفني كما يخيف عادلاً وأمي . . ففي تلك اللحظات يخرس أخي حتى عن التنفس ، يبول على نفسه ، يسمع أبي صوت بوله فيدخل في نوبة ضحك صاخب . . يتركني نهائياً وكأنَّ شيئاً لم يكن . يروح لعادل ، يرفعه إلى أعلى مثل دمية كاذبة . يقذفه إلى أعلى ويتلقّفه ، وقطرات البول تتطاير على شعره والبلاط . جدتي تقرأ وتنفخ على الجميع .

إذا رآها أبوك يتغيَّر ويهدأ . يحبّها ، يجلّها ، ويضعف أمامها ، عمتي تخافه هي الأخرى . . تدخل غرفتها وهي تدمدم : «لو يعرف يربي كان ربى نفسه بالأول» .

أمي ما زالت واقفة ، جدتي لا أعرف من يمدّها بكل هذه السلطة ، الله وحده ، أم هي التي نسجت كل هذا بطرقها الخاصة؟ عادل ما زال يُقذف ويعاد مثل طياراته الورقية ، وصوت أبي تغيَّر : «ملعون . انظروا هو وحده الذي لا يخاف . هذا عدو لي ابن أبيه» .

أنا مرمية على الأرض ، أئنّ ولا أبكي ، شعري منفوش ، الشرائط سقطت ، الضفائر حلّت ، أنظر إلى ساقي ، أمسحها بيدي وأنظر إلى مربعات «الكاشي» . هذا لونه أزرق وسخ ، وذاك أبيض باهت . أحسب عدد الكاشيات ، أرى بيوت النمل والتراب الملحي الذي يحيط تلك المغارات الصغيرة . الأرضية باردة ، رطبة ، البوط اللماع توقّف ، عادل صار أمامي ، نزل إلى ، دفن صدره في حجري وانفجر بالبكاء . أداعب شعره ، أنظر إلى خصلاته ، أحضنه ، يرتعش ، يرتجف ، يدخل نوبة من العياط ، ندخلها سوياً بكل أصواتنا ، وأبي يجرّني ثانية :

«اسكتي ، بعدين بالحزام أكسر ضلوعك» .

يسحب عادل ، يرفعه ، يبوسه ، يطلّع خمسة فلسات يعطيها له ، يقترب مني ، يجر شعري ويرفع رأسي اليه ، يأخذ يدي ويضع وسطها خمسة أخرى :

«حبابة ، أمشي مشّطي شعرك ، يا الله . . .»

كلما هدأ صوته علا صوت بكائي . يقرصني من خدي :

«والله اذا لم تسكتي . .» .

يرفسني ، يصفعني : «أما عجيب أمر هذه البنت ، تريدني أن أتوسَّل بها» .

عادل يجرّني ، يصير بيننا ، جدتي لا تنطق بكلمة . هي هكذا ، هذه طريقتها في ترويضه . أمي في الخلف تستقبل غزو أبي بالصمت ، كائنة خرافية نزعت من كامل مناصبها .

ندخل الحمّام عادل وأنا . أبي يدخل غرفته وصوته ما زال يطلق ألواناً من السباب .

عادل يهزّني من يدي : «هداوي هذه فلوسي خذيها أيضاً ، بس اسكتي» .

أدفعه ، يسقط أمامي ، يقوم بسرعة ويقف بوجهي وأنا أنتحب : «هداوي بعد شوية ينام أبي ، ونذهب إلى أم عزيز العمياء ، نشتري حمص وحلويات ها . .» .

أشهق وأمخط . جدتي وراءنا . . تمسح على شعري ، ترفع وجهي إليها ، أنظر في عينيها ، أدفن وجهي في بطنها الخاسفة وأطوّقها من الخاصرة : «يمه ماذا عملت؟ ليش أبو فردوس لا يضربها لما تلعب بالشارع؟ ليش أبي ليش؟» .

هذه الجدة كانت مركز الدائرة ، قوتها لا أعرف أين تكمن .

إذا سارت كانت قدماها لا تزعقان على الأرض ، مغزولة بالهدوء .

إذا تحدّثت طلع صوتها مكسواً بالحذر والحلم ، وإذا صمتت تحيّر الجميع بخططها القادمة . قوية بلا بشائر ، جبّارة بلا صراخ . جميلة بلا بهجة . جمالها يبدأ من أذيالها الشريفة ويغطي ضفائرها الفضية . نحيلة ، متوسطة القامة ، تشد على رأسها عصابة سوداء رقيقة تنزل أطرافها من الضفيرتين الرفيعتين ، وهي بيضاء ، لم أر بشرة بيضاء كلونها . بياض يتراوح بين الحليب الفاير واللبن المخثر . عيناها رماديتان تتداخل فيهما خيوط من الأزرق الداكن ، والأخضر البري ، والعسلي الصافي .

فعندما نراها صباحاً ونحن نتهيأ للمدرسة ، تكون بلون العسل ، وحين نعود عصراً تصير زرقاء . . أما في الليل فتكون لون الرصاص .

امرأة مدبِّرة ، تحب الحق وتغالي به . . تلوم أبي وتعنّفه من ورائنا ، تنطلق فجأة عليه ، تأخذ وقتها كله ، تشتته ، تفتته ، وتعيد اكتشافه من جديد علينا . تبهرنا كل مرة وتقص علينا بصوت واضح بعيد كأنه آت من سرداب مهجور ، لأبي قصة تعرضها جدتي ، لم تتفوَّه بها من قبل ، تختصرها . تمسح عليها الغبار وتفتح كتاب الصور . في المقدمة : صورة الجد المهيب ، المخيف الوسيم ، القاسي ، الشكاك ، الذي كان يحبها ويغار عليها كثيراً ، الذي لم يقل لها «أحبك» طوال حياته . . كان يلبس «الفينة» ويطلع يفتش في دائرة «علي الغربي» . يمشي باستعلاء ، يشبه باشوات الأتراك ، وحين يروح لعمله في «القائمقامية» الجميع يختفي عن طريقه . .

شعري بين يديها تعيد ضفره ، وأنا جالسة على السجادة في غرفتنا ، أدير لها ظهري فتحتويني بين فخذيها النحيفتين : «ارتاحي شوية . تبقين تتحركين ، قابل واقفة على نار» . .

عادل أمامنا . يمسك طاسة الماء ، تنقع جدتي طرف المشط الخشبي العريض وتبدأ بالتمشيط والحديث :

«سقط أبوكم على رأسه . ضربه الحصان من كان يتدرب «بعلي الغربي» مع جدكم . كانت الدنيا زينة ، والخيل جديدة .

كان يأخذه يومياً قبل ما تطلع الشمس ، يركبه الفرس ويهده هناك . أول يوم مشى والثاني والثالث . ظل حوالى اسبوعين يتدرَّب ويرجع .

كان يتغيَّر ، لا أدري كيف ، لكن صار غير شكل . لحمه انشد ، صوته تغيَّر ، صار مثل السبع ، يرسله والده ليلاً ولا يخاف» .

أقاطعها : «يمه يعني الذي يتدَّرب على الخيل يمكن يصير حلو» .

«حلو !! يصير رجلاً» .

«والبنت إذا تدرّبت على الخيل هل تصير اجمل ؟» .

«لا ، البنت جمالها بسكوتها وحيائها ، أنت أيضاً تريدين ركوب الفرس ؟» .

«أين الفرس الآن؟ كل يوم ضرب وشد شعر» .

يقاطعني عادل : «يمه وبعدين ماذا حدث؟» .

أنظر في عينيه . كان يبتسم وأنا أدفعه بيدي . تقع طاسة الماء على ثيابه والأرض . لا يغضب لكنه يعود : «أسكتي . على كل شيء تسألين ؟» .

«زين ، وين وصلنا؟» .

يرد عادل فوراً :«من صار أبوي مثل السبع» .

تتنهَّد قليلاً وتكمل :

«كان لا يخاف . رجل صغير . من يرجع بالليل كانت عيناه تظل على السماء . من يطلع القمر ومن تغيب الشمس . يقول للسماء أبواب كثيرة كلها مفتوحة له ويقدر يحسبها وحده . كان يتنبأ بأشياء عجيبة» .

يقاطعها عادل : «يتنبأ ، ما معناها؟» .

أرد : «صدق أنت لا تفهم ، يتنبأ يعني يقرأ على الغايب» .

«تمام ابني عدولي ، كانت السماء مفتوحة وهو يقرأ كل ما يكتب عليها . قال سيموت جدكم غرقاً ، وصدق . صار بعد سنتين انقلبت المركب بستة موظفين في البصرة . وقال سيتزوج كثيراً . كان يقول هذا ، ويركض وأنا وراءه أريد ضربه . آخ ، راحت تلك الأيام وما بقي إلاّ القهر» . . يتغير صوتها ويذهب بعيداً ، إلى شط العرب والليالي الأولى وهي تراقب أول ولد لها . تأخذ الشريط من يد عادل وتكمل :

«عمره خمس عشرة سنة . كان كلامه يخوّف ، حتى أنا بدأت أخاف منه . لكن في الأسبوع الثالث جاؤوا به محمولاً على الأكتاف . روحه غائبة ، أصفر مطعون ، مثل المكهرب . لا نائم ولا ميت ، وندبة صغيرة بنص يافوخه . فتحت الجلد وكشطت اللحم ولا قطرة دم طلعت منه . من يومها صار غير شكل . دخل بطور جديد . صار حتى من خياله يخاف . تدرون أبوكم تزوج قبل أمكم ، ظلّت معه سنة وماتت على الولادة هي وابنها» .

اسألها : «كيف صار؟ لا أفهم عليك ، يعني جن» .

تجرني من شعري بحدَّة :

«آخ لو لسانك الطويل هذا يقطع . لا ، هو تغيَّر ، لماَ ماتت زوجته تغيَّر مرة واحدة . كان يقف ويخطب بوسط الناس يسب الوصي والإنكليز . وتعلَّم على الشرب . أول مرة كان يشرب بالسر ، خاف إذا عرفت أزعل منه ، ولما عرفت صار يشرب بغرفته أو بالبار القريب . وبالليل كان يحمله رجال المحلة للحوش» . . يبتعد عادل قليلاً ، يسند ظهره على الحائط أمامنا ، جدتي تأخذ الشريط الثاني وتشدّ

شعري وبصوت لم أسمعه لعادل من قبل : «ومن أعطاه المسدس»؟ .

«أنا طلبت منه يدخل بمدرسة الشرطة . كلها كم سنة ويتخرَّج مفوضاً وبعدها يترفع ويصير معاوناً . هو تأخّر حتى خلص المتوسطة . كان يسقط بالدروس السهلة بس . عيني عدولي كل واحد يدخل بمدرسة الشرطة لازم يكون عنده مسدس . يمه هداوي . .»

تأخذ رأسي وتديره إليها . تمسك وجهي بين كفّيها وتنظر في عينيٍّ :

«هو مريض وأمك مريضة . كلنا مرضى . أمك تسمعين كيف تسعل بالليل وتبصق الدم . الله يستر إذا . أعوذ منك يا لساني . أنا لا أخاف الموت ، الله خلقنا والله يأخذنا ، لكن ما ظل صبر بعد . أمك ستسافر إلى سوريا ترتاح شوية وتشمّ هواء نظيفاً . عمّتك بعدها صغيرة ، كلنا ننتظر منير أفندي . مات أبو منير وترك له المزارع والدكاكين وصار يلعب بالفلوس لعب . لا اخوة ولا أخوات . عطال بطال ، ومحرَّم على البنت زواجها من أي غريب . أنت وعدولي قرة عيني ، أنتما أولاد العزيزة الغالية التي لم تفتح فمها بكلمة غلط ، أويلي عليك اقبال» .

تحضنني ، تطوّقني بين ذراعيها . أبوسها ، أحضنها ، أدفن رأسي في قفصها الصدري وأنضج هناك . أتحسَّس بطنها ، نهديها الطريين ، رقبتها الطويلة الدقيقة ، أرفع رأسي إليها . هذا الوجه الرزين ، الحزين ، والملهم ، الذي لا ينصح إذا أخطأت ، لكنه يتفتح إذا ندمت .

كانت تكسرنا واحداً بعد الآخر ، دون أن تطلع قطرة دم منا . تطرح على الجميع أفكارها ، تدرّبنا بلا تهديد ، تأخذنا إلى صدرها بلا وعيد . تئنُّ على رؤوسنا إذا مرضنا ، ترافقنا لآخر الدروب إذا شردنا . وتعسكر على أبواب أرواحنا إذا غلطنا . تغيَّرنا ساعة بعد أخرى . لا تحقّق معنا ، لا تستنطق أيامنا ، ولا تفر أمام شرنا الصغير . كانت تردد دائماً :

«اذا عملتوا الخير لأحد لا تتحدّثوا به . ماذا يحدث في الحوش قولوا لا ندري . وإذا أودع أحد سره عندكم لا تفضحوه أبداً . السر مثل الكنز ولازم نخبئه بالبئر . .»

و . و . . حين تذهب إلى السوق ، كل أصحاب الدكاكين يفتحون لها الغرف السرية والأكياس الجديدة ، يعطونها الحبوب النظيفة ، والخضروات الريانة ، السكر الأبيض ، الرز المنقى ، والعدس المقشر . يضعون كل ما تطلب بأكياس جديدة وترسل وراءها . لا تدفع ثمن كل ما تشتري ، ولا يكتبون اسمها في القائمة .

تدفع أول كل رأس شهر . لا تتراجع ، لا تتساهل ولا تماطل . تكره الدين قائلة :

«الله لا يدع أحدنا مديناً لأحد ، الدين يقصِّر العمر ويعمي العين» .

على صدرها كنت أخلط الخير والشر .

أطلق سراح كل الحسرات والأحلام ولا أخاف أمامها من أي عقاب .

إذا تنكَّرتُ بثياب أخرى ، فأمامها كانت عظامي لا تكذب ، روحي لا تغش ، ورأسي لا يخضع .

«يمه هدى بس تبوسك ولا يوم قالت لأحد منا أحبك» .

« لا أحد يعرف هداوى مثلي . الله يهديك ويبعد عنك أولاد الحرام . يا الله تعالي إكوي ثيابي ، غداً رايحة للتقاعد» .

لا أعرف ماذا يعني هذا الرأس العائم في رؤوسنا للشهر الآتي؟ لكن جدتي ، عمتي ، وأبي يعرفون ذلك جيداً . كانت جدتي تلبس أفضل ما لديها ، تمشّط شعرها بعناية ، نجلب لها طاسة كبيرة من الماء الحار والمشط الخشبي العريض يتجوًل على الخصل الناعمة الهفهافة :

«كل يوم يسقط شعر من رأسي ، هذا كله من القهر» . تبدًل نظارتها الطبية ذات الإطار الأسود الدائري العتيق بالأخرى الذهبية . نعرف من اليوم السابق كل هذه الطقوس . فكل شيء له ميقاته ، عباءة المبرد الجديدة تطلع من «البقجة» وتكوى ، الفستان الحريري الوحيد المشجر بأشجار صغيرة ناعمة ، يكوى هو الآخر ، «البابوج» العالي يطلع من صندوقه المخبأ في أسفل الخزانة ، تلك الليلة تتحوًل جدتي الى أميرة . الكل ينتظر بركاتها وعطاياها ونقودها . ومديرية التقاعد العامة الكائنة في «باب المعظم» بانتظارها .

حين نطلع صباحاً إلى المدرسة ، نعرف أن الراتب التقاعدي قد توزًع . تكون هناك دجاجة بمرق أصفر ورز أحمر ، وباذنجان مقلي . وصحون من الفجل والخيار والنعناع والخس موزّعة على صينية الغداء . و«سراحية» اللبن الطازج . رائحة الطبخ اللذيذ تدع صوتي يصير عالياً ، في المدرسة أُخبر فردوس : «عندنا اليوم دجاج ورز

أحمر ، انت تحبينه تعالي كلي معنا» .

كنّا لا نملك وقتاً للعشاء وآخر للغداء . نأكل عندما نجوع ، ونعرف أن النقود شحيحة . الوالد يعطي قسطاً ، والجدة عليها الباقي . وبين هذا وذاك كان «الكيمر» المدخّن فطورنا اليومي . البيض فطورنا الأسبوعي ، وعلى صينية الطعام ، كانت عمتي ترتّب الخضار كلها قائلة : «هذا الخضار ينقي الدم . أنظري إلى وجهك ، لونه أصفر» .

كنا نريد المزيد من الدم إذا كان نقياً أو فاسداً ، ما كان هذا مهماً ، طالما دم أمي فسد هو الآخر .

لم أخف من حكايات جدتي عنها . كنت أراها ، رغم تواريها وسعالها ، ما زالت قوية وصغيرة ، وأكبر من عمتي قليلاً .

إذا ما سألت جدتي عن عمرها تضحك وترد : «والله لا أدري . لما تزوجت أبوك كانت في العشرين . جاءت من حلب مع أخوتها وأمها . أبوها مات وهي صغيرة . خالك «شفيق» كان طبيب مستوصف كربلاء . كان حنيناً وهادئاً . جدتك لم تدعه يهنأ بحياته . قوية كانت ، وروحها حامضة الله يرحمها ، تقول دائماً ، ابني دكتور ولازم أزوّجه امرأة عندها فلوس . الله يرحمه كان يسمع كلامها ويخاف تزعل منه . مات شفيق على غفلة ، قبل ما يصير عمره أربعين سنة» .

«وخالي سامي !» .

«يوم أن خطبنا أمك عربد وشتم ، يقول زواج البنت عيب ، لكن

شفيق الله يرحمه قال ، جميل ابن ناس ومستور . ماتت جدتك وراءه بثلاث سنين . تعذّبت كثيراً ، ظلّت تلبط مثل السمكة وروحها ما تطلع لما الله أخذ أمانته بعد شهرين . بقي سامي ووداد وأنعام ، ظلوا بالبيت مثل الخدم عنده . . يضرب ويشتم . أمك لا تؤذي نملة . يا إلهي ارحمها يا أرحم الراحمين ، يا الله» .

-٥-

تلوح أمي في تلك الساعة في غرفتها قبالة أبي . وجهاً لوجه . هواء الغرفة تكدّر من عياطه . هي واقفة ، مقشرة ، متأكلة إذا تقدّمت من وتر النار ستحرق ، وإذا تراجعت ستختنق . الكلمات تنهمر مثل موج صاخب : «أنتم شيبتم رأسي . ابنتك سوف تجنني . كل شيء ضدي وأنا وحدي بكربلاء . الصبح عياط المدير ، والظهر صراخ المساجين وبالليل أعيّط وحدي . اسمعي سوف أتزوج ، بعد ما عندي صبر على هذا الوضع . أريد ولداً بعد . أنت انتهيت من ولادة عدولي . أنا أريد امرأة من صدق . صرفت عليكَ دم قلبي ورزقي لكن بلا فائدة . سافري لأهلك ، أرجعي منين ما جئت» . من بين دموعها : «صدق جمولي ، صدق ، سوف تتزوج؟أنتم أهلي ، أمك أمي وأنت أبو أولادي . . حرام عليك ولدك يعيشون مع زوجة الأب» .

تركع أمامه ، تصطك أسنانها ، تجهش ، يمدّ ساقيه وتبدأ من البوط . تخلعه وتضعه جانباً : «المرأة تمرض وتتداوى ويمكن تشفى لكن ما تنترك . الله أكبر جمولي ، هذا حق تعبي معك» .

تبدأ بتدليك الأصابع والساق حتى تصعد إلى أعلى . تنزع الجوارب ، تشمها : «رائحتك دائماً نظيفة ، ها عيني صدق سوف تتزوج جمولي . احلف بروح أبوك !» .

يدفرها على صدرها ، تقع إلى الوراء :

«ليش تريدين آخذ اذناً منك؟ صار سنين وأنت مريضة . الله أيضاً لا يقبل . أدوية ومصاريف وأنت على حالك» .

يقوم ويبدأ بفتح الحزام الجلدي ، يمسك المسدس ، إلا أنه ينحني عليها ، يرفع رأسها إليه ، ينظران إلى بعض . يعود وجهه مسالماً . تستطيع أمي في تلك اللحظة الاقتراب منه ، وقبل أن ينزع سرواله ، يهز ذيله بعصبية ويلقيها على الأرض . بلا كلام تجري دموعها . يتأكد أنها ليست ميتة ، وتعرف أنه غير قادر على الانتظار .

بين الدموع ودمدمته تنتحب : «لا تتزوج جمولي ، الله يخليك من أجل الأولاد وأمك المستورة التي كانت أحسن من أمي» . . يكتم صراخه في صدرها الراكد ويقوم واقفاً : «الآن اسمعي زين اقبال ، قبل أشهر تزوجت ممرضة من كربلاء . جاءت معي لبغداد وهي حامل أنا لا أحب الحرام . عندنا نسوان بقدر المساجين ركضوا عليّ . صغار وحلوات ، المدير شبع منهن ، والله حتى الحيوانات كان ينام معها . اسمعي لا تعيّطي ولا تبكي . أنت ستسافرين لسوريا وأنا سأبقى

وحدي بالسجن . تعرفين السجن ، تعالي لهناك حتى لا يبقى عقل عندك ، لا تخافي على الولد ، سوف يبقون مع أمي وأختي . ياالله انهضي وحضّري الحمّام» .

«وبعدين جميل ، بعدين إذا رجعت عافيتي؟ ها جمولي بعدين ماذا ستفعل؟» .

«الله كريم من الآن حتى تعودي سالمة ، هيا تحركي أريد أغسل وآكل» .

تدخل نوبة سعال لم نسمعها من قبل . صوت الخزانة ذات الأبواب الثلاثة يطلق سعاله هو الآخر ، إذا فُتحت لا نقوى على غلقها إلاّ اذا رفع أحد الأبواب إلى أعلى .

يتركها أبي مفتوحة بعد أن يأخذ مناشفه الكبيرة البيضاء ويخرج .

هذه الغرفة تقع في آخر الممر ، بعيدة عنا . أدفأ وأنظف الغرف . مصبوغة باللون الأزرق الفاتح . في وسطها سرير حديدي . الخزانة أكلت الحائط الوسط .

في وسطها مرآة فقدت زئبقها ، وتآكل خشبها من الحافات . في إحدى الزوايا كرسي عتيق وطاولة بلون التراب وضعت عليها أدوات أبي ، عدة الحلاقة ، قنينة الكولونيا ، وأخرى لماء الورد . رف صغير غطي بقماش مشغول بالخيوط البيضاء كان يحتضن القرآن الكريم ، في الزاوية الأخرى كانت تقبع رفوف عتيقة رتب عليها أبي كتب دار الهلال ، المختار ، قصص جرجي زيدان ، طه حسين ، الحكيم ، والمنفلوطي ؛ وأعداداً من المجلات المصرية ، المصور ، آخر ساعة

والكواكب . النافذة الوحيدة التي تطل على الحوش كانت مغلقة أغلب الأوقات . وقتما يكون أبي في كربلاء تفتح ستائرها الكركمية اللون . زجاجها نظيف على الدوام . في الصيف تدلكه أمي بالجرائد العتيقة . وفي الشتاء تشيل رذاذ المطر بخرقة صوفية ناشفة . أرضية الغرفة مغطاة بسجادة قديمة طويلة طويت في أكثر من مكان ، كي تلائم صغر الحجرة .

أمي تلوب . رائحتها محشوة بالخذلان ، واقفة في حضن هذا الإرث . البوط ، المسدس ، وهوس هذا الإنكسار . غفلتها الأولى انقضّت عليها . التحولات حصلت من وراء ظهرها . لا يهم الآن إن غيرت اسمها أو فئة دمها ، فلا شيء سيعيد الماضي ، سحرها ، جمالها ، وهدوءها .

تدور وسط الغرفة ، أدور معها من وراء النافذة . مهتاجة كانت ، تتقدم للموجودات والأشياء ، تنظر إلى كل ما حولها وكأنها تراه لأول مرة ، . تسير متمهّلة ، تمسّ القرآن ، تمسحه بيدها : «تركوني عندك أمانة ، ضربتني وشتمتني ، أنت الذي ورمت صدري» .

تتمايل ، تنظر إلى السجادة ، الخزانة المفتوحة . تلمس رفوف الكتب تتصلّب أصابعها هناك . عضلاتها تتشنّج . . تجر الكتب وتضربهاعلى الأرض ، ترتجف ، تعرق ، تزداد صفرة وجهها . تصير الأشياء حشوداً من الكائنات الخفية ، تضربها يمنة ويسرة ، تسحب باب الخزانة وتقف أمام المرآة ، تتقدم ببطء ، تفتح فمها بحركة بذيئة ، ترفع شعرها إلى أعلى ، تنزله على وجهها ، تحرّك ذراعيها ،

تجحظ عيناها وكأنها تنوي إفراغ أمعائها . تعيّط وتضع يدها على فمها ، تلطم وجهها ، تنبش شعرها ، تبلع ريقها وهي أمام المرآة : «صدق يقول جمولي ، صار وجهي مخيفاً . والله أخاف أن أراه في المرآة . من زمان وأنا أخاف هذا الوجه . تمام كنت أجمل الأخوات . لما جاءت أم جميل تخطب ، قالت نريد أعقل البنات . أف . أستغفر الله العظيم . أين صار العقل الآن . يمه تعالي انظري إلى اقبال الآن . جمولي تزوج . يمه . الله أكبر . يتزوّج ويحبّلها أيضاً . . .»

تضرب سطح المرآة وتخرّ على الأرض . تفتح ساقيها وتضربهما ترفع منامتها عن فخذين نحيفين تقرصهما . لا أرى إلاّ حركتها اللولبية وهي تهتز ، تختض ، رأسها ينزل ويرتفع وظهرها أمامي : «من بقى لي؟ الولد لن أراهم بعد . يمّه تعالي انظري إلى حالي . . لا . لا . أنا التي ستأتي عندك . حلوة السفرة لهناك . أراك وأرى أخي شفيق . أرى الصدق من الكذب . أويلي عليك اقبال البني آدم يتمرّض ومرات يضرب ويقوم . لازم يقوم ويقف بطوله . الموت وقفة . ليش جمولي ليش ، هل هي أحسن مني؟ إنني أم أولادك ، أم عدّولي الغالي . آخ يمّه ، عدولي من سيغسل رأسه ويعمل له الحلويات؟ والآن إلى أين أذهب؟ جمولي يريد يجنّني قبل ما أموت ، وأمه الغالية والله العظيم إنني بقيت من أجلها بس» .

صوت أبي العالي : «اقبال تعالي كيّسي ظهري» .

تقوم دفعة واحدة كأنها لدغت . . صوتها لا يسمع ، تمصه الدموع . تفتح كل أبواب الخزانة وتبدأ من هناك . تخرج ملابس

الوالد ، بدلاته الجديدة ، قمصانه المكوية ، أربطته المعلقة . ترمي بدلة وراء أخرى على الأرض ، تنشر القمصان ، وتنثر الأربطة تعمل مثل جني فتحت الأرض الحارة عنه فانطلق من الأتون .

تزعق ، تزحف ، تلمس الملابس وترمي . تدور وتكوّم كل شيء على الأرض وتقف فوقه . تستدير وتلتهب . هذه ثياب الليالي الطويلة من الانتظار .

قمصان الرجل الوحيد الذي دق على حضنها النبيل . وغاص منقاره حتى العروق المريضة . كانت تنزعه بيدها ، تدلك ظهره ، صدره ، وركه ، فخذيه ، ساقيه ، قدميه ، تمسكه من الذراع وتصعد إلى الرأس .

تفتح شهيته للنوم والشخير . تغطّيه وتنظر إليه . تجلس تحت السرير حتى يستيقظ ، وحين يناديها تصعد إليه ، مرضوضة ، لكنها لامعة .

على هذا السرير كانت تعرف إنه الرجل ، والوالي ، الأب والمعين . تدوس ، تقفز ، تدور وتولول . تطلع الفانيلات البيضاء ، تأخذها إلى وجهها ، تشمّها ، تبوسها ، تأخذ الملابس الداخلية ، المحارم البيضاء والزرقاء ، الجوارب ، تنوح : «تتزوج جمولي وتحبلها ! ! آخ ، والآن ماذا سأفعل ؟» أول مرة يصير لأمي صوت . ينتزع لنفسه حبلاً وينزل به إلينا جميعاً . يخترق الجدران والآذان . لا يشبه أصواتنا ولا قتالنا اليومي .

صوت يبدأ ، يستيقظ ، ينفصل ، يتدحرج ، يحمل رايته ويقف أمامي في النافذة . .

لا تراني ، أراها . تصيح بوجهي : «امشي أعطيني المقص» ؛ هذا إرث أبي الثمين ، فراشه ، ملابسه ، أوعيته الدموية ، أحشاؤه وجنونه . شارات شرطته ، وشروط وسامته وأناقته .

كان أبي يصرف معظم راتبه على الملابس . . يعيِّن لون الشتاء : الرمادي والكحلي . ويصنِّف للصيف ، الأزرق والبيج ، ويتألق ، يلمع وهو يقف أمام المرآة ، يدهن شعره ويلمعه «بالكريم» الأبيض . ويغرق وجهه بماء الكولونيا . على بدنه كانت الملابس تصير لها أجنحة ، يطير بها إلى الشارع . يسيل لعابه وهو يرى نفسه في عيون نسوة المحلة . يرتعش وهو يضع الساعة ذات السلسلة الذهبية بأرقامها اللاتينية ، هدية الجد من أيام الانكليز . يشبكها في جيب «اليلك» ويترك السلسلة تلمع ببريقها على عظام صدره .

يطلع من البيت وحيداً . يمشي مثل ملك تدرب طويلاً على هذه المشية . لا يصطدم بأحد ولا يسلِّم على أحد بيده . يتحسَّس جيبه ، حزامه الجلدي ، فتحة ياقته ، كسرة سرواله ، لا يخطىء في سيره . لا ينقطع له زر ، ولا تسقط له محرمة . إذا صعد الحافلة لا يجلس . وإذا جلس يفرط في تعديل ساقيه وذراعيه . يقطع نفسه ، يشد على أضلاع صدره ويبدو هيكله العظمي مكوياً . يأخذ بدلاته بيده إلى «أبي غانم» مكوجي العائلات الراقية الكائن في «رأس الحواش» . . وبيده يعيدها . يلمسها ، يطويها ، يفردها ، ويعلّقها في الدولاب . يأمر أمي قائلاً : «اغسليها وحدها ، انشريها بالضل حتى لا تصفرّ» .

واذا ما مس أحدنا هذا الإرث كان ينزل أرواحنا ويعلقها أمامه

ويضرب : «أين صرت اقبال؟ تعالي ليّفي ظهري» .

تصير وسط الغرفة ، تنحني ، تقوم وتبدأ بما أمامها . تمزق بأسنانها وترمي على الأرض . تشهق : «لن أموت مرتين ، وإذا ما مت سأموت مرتاحة الآن» .

أعيّط وسط الحوش . الجدة والعمة وعادل يصيرون أمامي . يدخلون إليها . صوتها صار أعلى من صوت أبي : «ابنك تزوج يمه أم جميل . . جمولي تزوج والمرأة حامل . هذا الرجاء منكم . لكن الآن سيرى من هي إقبال؟» .

صوته ، أصواتنا وصوتها ، كلها تشرب من نهر الجنون ، وينبت في البيت دمار جديد . عادل يتقرفص في إحدى الزوايا ينظر ويبكي . العمة تشيل الملابس ، الكتب . الغرفة صارت تشبه غرف السطح العالي .

تولول فريدة : «الله الساتر من هذا اليوم . والله سيقتلك جميل . هدى تعالي لمي معي قبل ما يطلع ويصير دم بهذا الليل» .

وحدي أرى وأرى وأرى . . أتعثَّر وألتوي . الجدة تحضن أمي ، تطوّقها ، تقرأ على رأسها وتسحبها من يدها : «الله أكبر ، بنتي اقبال الله يحميك ، اسم الله عليك ، امشي بسرعة نطلع قبل» .

تصرخ أمي بكل صوتها : «ماذا سيحدث بعد؟ يقتلني إذا مزقت ملابسه ، لا يهم ، أنا ميتة . حتى دم ما بقى عندي . تزوج جميل . هدى أبوك تزوج . تعال عدولي صار عندك أخوة . عدولي هداوي تعالوا انظروا ، اليوم رأسي أمام رأسه . أريده أن يأتي أمامي . . اطلع

جمولي من الحمام ، اطلع حتى ترى اقبال راح الخوف . يمه كل شيء راح الآن .» .

تسعل ، وأول مرة أرى دمها . أعيِّط وعادل ، وجدتي أول مرة أرى دموعها .

صوت أبي : «ماذا يحدث؟ إقبال هداوي ، عدولي ، فريدة أين أنتم؟» .

صوته يقترب والجدة تجرجر نفسها وإقبال ، تسحبها من ذراعيها ، تعاند أمي ، تتمرَّد ، تلتهب ، صوته لا تسمعه ، صوتها يتعالى : «لن أخرج ، أريد أن أبقى لأراه ، اليوم أريد أن أموت . عدولي ، هداوي تعالوا قربي . ماذا سيحدث أكثر من الذي حدث . إلى أين تريدين أن تأخذيني؟ هذا بيتي وهنا موتي .» .

تضع جدتي العباءة فوق رأسها ورأس أمي . تجرّها ، تدفعها ، تنفخ بالصلوات وتكبِّر . لا تنسى أيَّ شيء . جدتي ، تأخذ حقيبتها ، تغطي وجهها بـ «البوشي» ونظارتها الطبية على عينيها تدفع أمي أمامها للشارع .

أبي صار في الوسط ، مبلولاً وخائفاً ، سعال أمي يطلع من باب البيت ولا يعود .

اسعلي الآن ما شاء لك الوقت والزمان . نتكوَّم على بعضنا ، عادل وانا نشهق ، نتمخط ثم نصمت .

-٦-

ابوك يعسكر في غرفته ، يفتح النافذة : «عيني فريدة شاي من يدك الحلوة» .

يبدأ بالقرآن . صينية الشاي ، الخبز والجبن الأبيض وأوراق النعناع . عمتك مرصودة لهذه الأدوار . تغزل الصوف شتاءً وصيفاً . الجدة على سريرها وبيدها القرآن وأنتم لا تتجرأون على اللعب .

لا أحب الدروس في المدرسة لكني رغم ذلك أنجح آخر العام بصورة مزرية . . .

هنا لا أقوى على السكون . لا سعال ، لا دم فاسد ، ولا دم نقي . حتى النمل ضلَّ طريقه في هذا الحوش . لا أحد يتحرَّش بأحد ، ولا أحد يتلعثم مع أحد . عادل فتح كتاب القراءة ، يهبط المغرب وهو يقتل حروف الباء والدال والضاد . وأنت تلوبين بين الجميع . تفتحين

ضفائرك ، تعبثين بها ، تضربين عادلاً ، تدفعين كتابه من يده ، تدوسين صمغ طيارته الورقية . تريدين صراخاً ، طلقاً نارياً ، لا أحد يصرخ ولا يسعل منذ أشهر . يقولون إنها تتدهور يوماً بعد آخر ، هواء سوريا لم ينفعها ، هي تريد هواء هذا الأب .

السماء تبدو من الكوّة الزجاجية في أعلى الحوش رصاصية وسوداء . والوقت حائر ، لا يتقدم سريعاً لتكبروا ويكتمل بأسكم .

تصيرين أمام باب السطح الذي يسرِّب هواء مثلجاً في الشتاء وغباراً يشبه مسحوق البودرة صيفاً . كنتم تسدُّون شقوقه بقطع صوفية سميكة .

تطوين الدرجات بلمح البصر ، تصيرين أمام الباب ، إذا فتحته يهتز الحوش كله ، وإذا بقيت في وقفتك فسوف تتحوّلين إلى معتَوهة . تمسكين قطع الصوف تضعينها بين الحائط والقفل . وتبدين كلصة متدرّبة على الفتح . يجب أن يفتح الباب مرة واحدة .

تقفين على السطح ، لا غنائم كبيرة هنا إلا السماء ، وأي اتفاق كنت تبرمينه مع الله كان يخذلك . طلبت منه أن تتقاسمي تلك المسافرة السعال والمرض ، فلم يوافق إلاّ على تراكم الخصومة بينك وبين حولك . أبوك الرقم الأول في هذه السلطة ، والسماء كانت تزاحمك وتدفعك للحرب . . لا باب أمامك فإلى أين كانت ترسل جدتك الدعوات؟

في تلك الأعوام كان أبوك يندرج وحده في تخطيط أمر هذه العائلة ، وينتج شره العام والخاص .

تزوّج «نورية» العوراء ممرضة المستشفى الحكومي في مدينة كربلاء وانتقل الى دارها العتيقة ، ليدفع به زعيق أمها وأخوتها إلى الجنون . فكثرت زياراته . كل خميس يجيء إلينا وأحيانا يأتي وسط الأسبوع . الديون صارت حوالات مسحوبة على المستقبل وهو ينتظر ذريته من بطن امرأته الجديدة .

«لم تروها ، لن تروها» هكذا أقسمت جدتك ، ونظَّم هو عالمه الذي يبدأ بالشرب وينتهي بالسكر .

يقولون إنها تنازلت لبعض السادة في المدينة المقدسة . يقولون إنها تساهلت مع بعض أصحاب النفوذ ، ويقولون إن أباك كان ساقطاً تحت علامات سحرها الهالك . يقوّلون ويتقوّلون وجدتك ، لا تتقدم ولا تتأخر ، قرارها : «اسمع أبو عادل ما دام في صدري نَفَس ، نورية لن تدخل هذا البيت ، هي زوجتك على رأسي ، الماضي لها والحاضر لك وماذا سيحدث بعدين هذا شغلك وحدك» . يطلع صوته أسياً حزيناً : «يمه يعني قولي طلقها ها . هي ليست عاطلة . أمها كانت تقرأ عزاء الحسين . أخلاقها ، استغفر الله العظيم من سيرة الناس ، لكن هي مستورة ، عاشرتها ، تحبني وتخاف مني كثيراً ، وبعد كم شهر سوف تلد ، من أجل الولد دعيها تجيء وتقبِّل يديك ، ها يمه . . الله يخليك» .

لا تردُّ ، لا تلتفت ، ولا تنظر إلاَّ داخل حجرها ، يمسح كلامها وصوتها بثيابه ويخرج منكساً رأسه . ينصب طاولته : الخيار المقشر ، الباقلاء المسلوقة ، الحمّص المعصور عليه الحامض والسماق .

وثلاثة أقداح فارغة . دائماً كان يضع هذا العدد من الأقداح أمامه . ينظر إليها ، يحبها فارغة ، ويريدها ممتلئة . وقنينة العرق ، يناغيها ، يداعبها ، تنتظره ، ينتظرها .

عبر المائدة كان الوالد ينتظر طوابير من اللمسات . استبداد الشرطي ينفرج ، ملابسه الرسمية تنزع ، بوطه يستبدله بالأرض ، وأصابعه حافية تدوسها . هنا يقابل اللانظام ، يطلع من السجن ولا يضمر إلاّ بعض المحبة . يصادقكم واحداً بعد الآخر ، يبدأ من عادل ، يناديه ، يمازحه ، يطوّقه ، يقبّله ، يرفعه ، يدفنه في صدره ثم ينزله إلى الأرض . يضعه في حجره ، ينظران إلى بعض . يبدأ من كتاب القراءة ، يفك الحروف ، يدرّبه على الحساب ، يقرص خده قائلاً : «انا لا أشبع منك أبداً» .

يسند عادل على الحائط ، يمدّد ساقيه ، يشرب ويشرب ، يقضم طرف الخيارة ، وينزل نائماً على ساقي عادل الممتلئتين :

«الله يرضى عليك عدولي امسح رأسي . رأسي يوجعني دائماً عندما أجيء هنا وعندما أروح لكربلاء ، أحس كأن هناك صوتاً ينادي عليّ . كل يوم أسمع صوته ، وكل يوم الصوت يتغيَّر . صوتاً كأني سمعته من قبل ، أعرفه بعيد ويخوف . عدولي كل شيء يتعبني ، حتى عندما أنام أتعب . آخ من هنا يؤلمني ، هنا وراء أذني ، الله ! تدري لما أضرب أختك أبكي وأنا بالقطار . بالسجن اتذكَّر دموعك ودموعها وأنا أسمع عياط المساجين ونحيبهم . تدري عدولي مرات أفكر ، لو تأتون عندي - هناك - بالسجن ، حتى تعرف كيف أعيش . تراب وموت

أسود ، ذباب وقمل ، جراد وفئران صاروا أصدقائي هناك .

أف ، كل مرة أريد أشرب حتى أسكر ، لكن كل مرة أصحو أكثر من السابق . جدتك تقول العرق حرام ، إيه هناك حرام كثير في هذه الدنيا ، لكن العرق هذ لو تذوقه مرة واحدة كان تعلمت عليه مثلي . عدولي لا تخف مني . أنا لا أخيف أحداً . أنا خائف على طول ، لكن أنت ، أريدك لا تخاف من أي إنسان . حتى الله عز جلاله لا يقبل خوفنا فقط . ها عدولي صحيح أنا أخوّف؟ قول الصدق ولا تخف» .

يقوم ، يسند ظهره . عادل صامت يفرك أصابعه ثم يرفعها الى فمه ، يقضم أظافره ويبلعها : «تعشيت؟» يهز رأسه بالإيجاب .

«اذهب أكمل دروسك ، تعال أبوسك» .

أذان العشاء يباعد بين الأصوات ، يلهمك البكاء . تبكين وحدك ، تدفعك الدموع للضحك . النجوم عاقة وكل هذا الأفق كذب .

الأرضية مبقعة ، مجعدة ، غير مستوية . إذا أمطرت نامت السيول في الفجوات والحفر وثقب لكم سقف غرفتكم . تضعين السطلات وتسمعين خطوات الماء .

هذا حبل الغسيل المهترئ ، تلك غرفة البعثرة والفوضى ، متربة ، مهجورة ، بابها محروق وأشياؤها عتيقة : وسائد ، بطانيات ، كراسي مكسرة ، صناديق مخلّعة ، أدوات من النحاس والفضة ، ملاعق ، وصحون . هذا مهر جدتك الأول : هي مولعة بالقديم ، كل عام تصعد هنا ، تنثر المحتويات وتبدأ بشطفها ، مسحها ، تلميعها وأمي معها ، كلنا نصعد هنا ، لنرى أسرار الجدة ، وكل أطراف العائلة لهم حصة من هذه المتروكات .

افتحي الصناديق وانظري . أشياء لم توجه لها الإهانة ، لم تجلد بالسياط . متوحدة في غبارها ، نائمة في أوضاعها . لها قدرة فائقة على عدم التملك ورفض الغل . ركنت ، اعوّجت ، صدئت ، بهتت . لكنها تشبَّثت بصمتها وشهوتها ، فصارت تجازف وتحدثني ، وأطالبها بالاعتراف . إنها أجمل من الآخرين : أبي ، عمتي ، زوج رسمية ، والعم منير .

أشياء لها هذا التمييز الفائض أن تصير لذة . أن تنام بين راحة يدي ، ملعقة جدتي الفضية التي أكلت بها في يوم عرسها .

أبوك سيبسط عليك طغيانه إذا عرف أنك هنا . عمتك ستضربك ، جدتك ستسكت ، وأمك لن تأتي .

افحصي وافحصي ، وردّي الأمانة لكل هذا المحتوى . نظمي طرق الوصل وافسحي المجال لطلب التوبة من كل هذا الباقي أمامك .

أنت هنا ، والنافذة الوحيدة بزجاجها المغبرّ أمامك . ملابس الجيران منشورة على حبال السطوح ، رخيصة ، تنزل من ثقل الرطوبة وتلامس الأرض . الملابس تبدو مثل بشر يشنق . وأنا أنتظر المقصلة على يد أبي .

كان أبي على قياس بدني تماماً . كان خوفنا من بعضنا بعضاً بلا قناع . هو لا يحتمل فقداني وأنا أيضاً ، فكنا نقتحم أسوار بعضنا ولا نشوّش على كل ما يمر في طرقنا . نخطط معاً وجهاراً : الملعب ومساحة الضغينة واحتفال كل هذا التكافؤ . ننتشر هناك وينتظر بعضنا بعضاً .

قالوا : هدى رضعت من ابليس .

الوالدة لم ترضعني إلاّ أياماً . صفيت حليبها ولم أشرب إلاّ «الخشخاش» . هناك صارت تضربني أطول وأشد ، وافقوا أن يصاحبني أحدهم إلى ذلك الرواق : أبي ، فتحصّنت مثل قطاع الطرق ، وفزت بالمخالفة .

الليل ينشئ نبرته الجديدة . . هذا السطح يدرّبني على إحصاء العث الذي دخل الأحلام ، دخل الأجساد ، فتآكل الكل . وأنا أحذف واحداً وراء آخر : في الطليعة أبي .

المسدس يستبدل به الكل إلى الجزء . يحمله . ويصعد ورائي . وإذا ما انفجر خوفه كانت هذه الآلة تحوّلنا إلى قشور خس .

لا يضغط على الزناد ، نتحاصر من موطئ القدم . ونصعد إلى الخاصرة . لم يكن ضخماً إلاّ أنه كان طويلاً ، كتفاه ينتظراني ، وجهه يتغيَّر ، يتبدَّل ، ممهداً لي كل السبل أن أسير صوبه . العرق يتجمع بين الأنف الشامخ الدقيق والشفتين المتدليتين ، وما بينهما كان لعابه يتقدَّم ، ينفثه بوجهي ويطلقه في الهواء الذي بيننا كما تفعل «أم ستوري» في الحمّام الكبير . ثم نتلامس ، في هذه اللحظة أحضنه ، يلتصق وجهي ببطنه ، أقبض عليه بكلتا يدي ، ولا أقوى على إحاطته بدائرة كاملة . هذه المرة هو الذي يرفس .

أربطه ، أمسكه ، أشدُّه إليّ ، أصعد رأسي إليه ، أنظر إلى فوق الضربة والقبضة الأولى . ثم ينساق إليّ .

ضفائري يعرفها جيداً ، شرائط شعري لا تدافع عني . الجيران صعدوا السطح يدمدمون . محمود يبكي بصمت ، عادل يرى جدتي

لا تنطق بحرف ، تتقدَّم ولا تدافع ، لكنها حاضرة . اذا تجاوز ستشرع صوتها ويدها . المسدس بيده ، يدقُّ به على رأسك . لا تبكين ، تركت جفنيك لا معتين ، وعينيك صافيتين ، ورموشك يابسة . ظهرك توجه له اللعنات ورأسك يصعد إلى السماء . كانت سماء بغداد وكأنها آتية من فضاء عتيق . والعالم يشبه المائدة المستديرة ، تفترش عليها بنيتك . يبدأها الأب من الكتفين ، وينزل إلى الذراعين المضطربين ، الى البطن والأرداف . يلوح بمسدسه : «والله إذا وصلت هنا مرة ثانية أقتلك» .

في العاشرة واجهت أول شرطي في حياتك . استدعى كل ذنوب العاشرة ، التهور ، الطيش ، الأكاذيب ، الأحلام المغرر بها ، واللهفة على الاكتواء بالنار كي تلمعي أكثر : أخرجي كل هذا من قفص الصدر واحتفلي به مثل عيد محرم . هناك كنت أعيِّد مع الشرطة وأدعو الحشرات والنمل الأسود والأحمر والأشياء المجهولة إليّ . تجاويف الصناديق المقفلة ، خيوط كل معلوم كنت أشطره لأرى وأرى لأرى . . هناك أفتح عليه نافورة الروح ولا أوافق على قتله . إذا قتلته من يعدل جمجمتي؟ إذا مات من أحارب؟ وإذا جُن من سينهض ويطحنني؟ .

وحده يتبعني ليعرف أني أتفوَّق عليه .

أبي .

أدور وأدور ، وستّ سيقان واقفة تتفرَّج عليّ ، عيون طلعت من غضاريفها جاحظة بلا معنى ، بلا رجاء ، بلا نعمة ، لا يندبون لا يضحكون ، ولا يصرخون .

من تحت تلك السماء كان أبي يأخذني لباب الجحيم ، أما المصير فقد كان كرة ملتهبة تنفث منها العداوة ويغطي مسامها الدم والتراب والخوف . صوته يتطاير يكشط صبغ الشعر من رؤوس الجيران : «قحبة ماذا تعملين بالسطح ليلاً؟ تتواعدين مع أولاد المحلة؟ محمود الخرا ، لو ستوري «المطيرجي» لو هاشم الأحول؟ قولي . ها» .

قولي يا هدى ولا تتأخري . دنّسيه والحقيه بشرك ، فلا فريسة عندك أكبر منه .

بين الدرجات كنت تتوعّدينه ، فالجميع لا يعرفه مثلك ، هو أول رجل ملهم في حياتك ، افتحي عينيك عليه جيداً ، احبسي أنفاسه ولا تتبادلي معه إلاّ مشاريع القتل .

فما كان الاحتفال الاشتباك إلاّ ليزيد مخالبك على الخربشة ، أسنانك على العض ، وعضلاتك على المهاجمة .

اسرقي ما يُخبأ له من أطعمة منوَّعة ، حلويات وفاكهة . اعبثي بكتبه ، مجلاته اقرئيها وانشري أفكارها عليه أولاً . صبّي عليه هذا المجد من قلبك العزيز الصغير ، وامشي إلى أمك بسيقانك المقوسة . افتحي لها الأبواب ، اجلسيها مليكة للموت والحياة . ابكي عليها فهي تحتضر .

أجفّف وجهي ، أسوّي شعري بيدي ، أردُّه إلى وراء ، أنظر إلى هيئتي وأنتظر محمود في أول الشارع . أنت في الطريق مجدداً والأولاد يدخلونني سلطتهم .

«اسمع أنا أيضاً ولد ، لا ، لست ولداً ، لكني أقدر أن أكون مثل الولد» .

يرد محمود : «لكني أحب أن تبقي بيننا» .

كنت تكرهين اعترافه وتحبينه أيضاً . كان واضحاً منذ البداية وهكذا أنت . لكني أحب العصيان وصداقة الصبيان .

كنت أعرف إذا تجمَّعت قوتي ومحمود فسوف نزلزل الطرف الذي نسكن : «امي تقول أنت مثل الشيطان» .

«اسمعي انت دوختني بكلام أمك» .

أضحك ، يرفع رأسَه إلى وجهي : «عندما تضحكين تصيرين أحلى» .

أنظر إليه وأنا ما زلت أضحك : «أنا لا أعرف الشيطان ، لكن ، اسمع انت معي يعني أنت مع الشيطان ، تقبل لو لا؟» .

-٧-

«بسم الله الرحمن الرحيم . افتحوا الطريق» .

«عيني أبو هاشم ضع الكيس هناك بالحوش ، الله يعطيك العافية . إي هنا» .

يرفع رأسه قليلاً ولا ينظر حوله . يضع الكيس الكبير من على ظهره . العمة واقفة وراء نافذة غرفتنا . أنا وعادل وسط الحوش .

«الآن اشربي سكاير نظيفة ، هذا تبغ أبو نوري الممتاز» .

«والله بس أنتهي من اللف سأبعث لك دزينة تكفيك كل الصيف - تستأهل أبو هاشم» .

«الله يخلف عليك بالدنيا والآخرة . لكل أصحاب الدكاكين يقولون أم جميل مثل- العلوية- إذا قرأت على الجرح يشفى . الله يكثر من أمثالك أم جميل» .

يقول هذا يصير أمام باب الحوش . العم منير واقف وراء العتبة : «أهلاً عمي منير» .

لا ينظر ولا يرد . يسير للداخل . عادل يغيب في لحظات عن طريقه ، جدتي تدير ظهرها عنه ، وأنا أنظر إليه بكل عيوني . يعرف طريقه . يصير في غرفة العمة ، يقف في الوسط : «دائماً أمام الشباك ، ألا تملّين؟ كل يوم نفس الأعمدة ونفس المنظر؟ أنا أمامك الآن وأنت بإنتظاري وكل شيء سوف يمشي على المرام . ها» .

لا تلتفت ولا ترد . تتحرك من أمامه ، وقبل أن تمر يجرها إليه : «إلى أين ذاهبة؟ ماذا ، هذا زعل لو دلال؟» .

تدفعه وتصير وسطنا .

«بنتي هدى حضّري الكرسي والصينية وتعالي أنتِ وعدولي . ساعدوني شوية» .

هذا موسم الدخان . التبغ النقي بلون الشمس المدخنة ، مغربل ، مطحون . تحضّر جدتي عدة دخانها لكل موسم . تجلب لها الكرسي القصير الأرجل ، والصينية النحاسية المدورة ، نسوّي لها مقعد الجلوس ، الوسائد وراء ظهرها ، والبطانية تغطي حوضها وتنزل إلى قدميها ، أكياس الورق إلى يسارها ، وكيس التبغ إلى اليمين . إذا غرقت (التتن) ، يكون الورق الأبيض الناعم الطري أمامها مهيأ ، مقطعاً للف السيجارة . الرائحة تفوح في الحوش . غبار التبغ يسدّ البلاعيم ، تدخل نوبة سعال ، وأصابع الجدة تعمل ، تشد ، تبرم ، تلف ، تلصق ، وتحسب . تخلع نظارتها من حين لآخر ، تمسحها بطرف منامتها وتعيدها إلى عينيها :

«لو بس الله يرحمني ويدعني أترك الدخان ، صدري تورم ونَفَسي انقطع ، لكني أحب السيجارة ، الله يلعنها ويلعن اليوم الذي تعلمت عليها» .

أسألها : «يمه ، كيف هو طعمها؟» .

يطلع نباح العم منير علينا : «هذا دخان «المزبّن» أقول أم جميل لماذا لا تجرّبين سيجارة «كرافن»» .

يخلع حذاءه ويلتفت إلينا ، يجلس قرب العمة على البساط .

«أنا لا أحب الإنكليز ولا دخانهم . الله يلعنهم بالدنيا والآخرة» .

يطلق ضحكة عالية ويبدأ بالعبث بشعر عادل الذي فرَّ من أمامه بغتة : «الآن الوقت مع الإنكليز . بدأت تتحدثين سياسة ألا تخافين؟ هذه ليست عاداتك؟» . تسعل وتضرب الصينية بين يديها كي يتجمع التتن وتحسب . ترفع رأسها إلى عادل ، تجرّه إليها وتقول :

«زين ، خمسمائة سيجارة . كل مرة يأتون الحبايب يساعدوني . اليوم تركوني وحدي» يشعل السيد منير سيجارة وينفث دخانها في ظهر عادل : « ها ، أم جميل لماذا لا تردين؟» .

العمة صامتة . عادل صار أمام الجدة ، يحسب معها ويشد الخيوط الغليظة على كل مجموعة . أجلس أمام الجميع وأنظر إلى هذا العم ، اليوم يرتدي بدلة زرقاء غامقة ، ورباطاً بلون الكمون ، قميصه نظيف وجوربه أسود ، رائحته غامضة ، وضحكته لزجة . والوقت عصراً ، الشمس بين الألواح الزجاجية كالشبح .

العمة تتحكّم بغضبها ، إذا تأخر في خطبتها ، وحرم ، ناور وتقدم ،

فهي ، جالسة أو واقفة ، نائمة أو مستيقظة ، تنتظر حركة يده وعضلة لسانه : «أقول أم جميل متى يأتي ابن عمي؟» .

الجدة لا تنظر إليه ، هي هكذا ، تعرف من الذبذبات ، من الهيكل العظمي لكل الذين يدخلون أو يخرجون ، الذي أمامها إذا كان رافعاً صوته أو خافضه . تحاصره بصمتها ولامبالاتها ليتعثر أمامها دون عناء .

هذا المنبر تعرفه جيداً ، إذا سخر أو ماطل ، فكل الأسئلة والأجوبة واضحة : «عندك شيء جديد؟ قله» .

عادل يتعثر بعد الحساب المائة سيجارة ويطلع صوته رفيعاً ، يعطس ويطلع مخاطه للخارج : «يمه ألا يكفي ما عملنا . سوف أختنق من رائحة التبغ» .

تبتسم جدتي وترفع رأسها اليه . هذا ملك الجدة بعد أبيك ، صغير ، فاتن ، يعطس من الدخان . ينام إذا مرض ، يدخل الصمت نهائياً إذا جاء بعض الغرباء . هذا المنير ما كان يحبه . يلاحقه في السطح والشارع . عندما ينام وحين يستيقظ . «الا يوجد شاي؟ الله يذكرها بالخير ويرجعها سالمة ، أم عدولي ، كانت أول ما أدخل تضع صينية الشاي أمامي . أقول ما هي أخبارها الآن؟» يلذع عادل وأنا . من زمان لم نجرؤ على السؤال عنها . ما كان همساً ظل همساً ، وما كان فضحاً ظل مختوماً بين الحجرات والألسن . فيوم تجيء الخالة «وداد» كانوا يدفعون بنا للخارج . تبوسنا ، تعصرنا ، تشهق في وجهينا ، تنظر في عيوننا طويلاً ولا تبكي ، لا تتحدّث ، ونحن لا نسأل ، كل شيء كان ينتزع نفسه منا ، الغائبة ، المسافرة ، العليلة ،

وميلاد الأخ الجديد لنا ، أطلق عليه الوالد اسم «سعد» .

جاء يوماً وكان متأكداً إذا رآه الناس في الشارع سيعرفون أنه أنجب ولداً آخر ، كان يدخل البيت ويعرف أن الجميع سيلزم الصمت ، صمتنا أمام الولادة الجديدة ، وغياب إقبال الذي طال . وبين هذا وذاك ما كان أحد بقادر أن يتوسط بين الجدة والسيد جميل . حتى قرار الترفيع الذي أذاعه مدير السجن قائلاً : «هذه النجمة هدية سعد» .

تلك النجمة الصفراء البراقة ، أخرجتنا من التهديد إلى التنفيذ .

جدتي لا تخطو إليه وهو لا يبتعد عنها ، لا تنكر زواجه ولا تباركه . لا ترفض أبوته الجديدة ولا تعارضها . فبدأ يغيب طويلاً عن بغداد وعن بيت الأعظمية ، يرسل نقوده الشهرية بيد أحد المراسلين ، ترسل زوجته أكياس العنب الكربلائي اللذيذ صيفاً ، وسلال البرتقال شتاء ، دجاجاً وجبناً ، أقراص خبز البيوت الطالع من التنور ، نأكل جميعاً إلاّ جدتي .

تقوم العمة بتكاسل ، تدخل المطبخ ، نسمع صوت الماء ، الأقداح ، والدمدمة الغليظة ، ينهض العم منير وراءها : «منير انتظر شوية ، ستعود فريدة . ها ماذا قررت؟» . يجلس ويتأفّف ، يصطدم بالصينية فتتساقط مجاميع السجاير ، يطلع صوتي وأنا أنظر في عينيه : «على كيفك ، عينك مفتوحة وأنت لا ترى ، الله أكبر عليك» . يضحك ويبلع ريقه : «اليوم سماح ، لكن لسانك الطويل سوف أقصه ليس الآن ، عندما أجيء وأعيش معكم» .

«تعرف عمي منير لما تصير عصبي تضحكني . أرى والله» .

نضحك ، عادل وأنا :

«يمه ليش عمي منير يريد العيش معنا؟» .

«سنرى متى يأتي ويعيش معنا . أبي لا يوافق أن يعيش معنا أي غريب» .

«يمه عمكم ليس غريبا»

«يعيش معكم» هذا الكلام الجديد ، لم تأبه جدتي به أيضاً .

«أقول أم جميل سوف أبني غرفة جديدة بالسطح وأرمم الغرفتين وأصبغهما . الأسبوع القادم سيأتي العمال . وأول خميس من الشهر سنعقد القران . لقد تعبت من الوحشة والوحدة . بيتي سيكون كبيراً علينا ، سأعيش معكم ، عيني تبقى على الأولاد إذا غاب أبو عدولي ، وأعيش على بركات دعائك علينا جميعاً . هذا كلام به عيب لو عندك غيره تقوليه؟» . أول مرة ترفع رأسها وتنظر اليه . كان وجهه مستودعاً لكل التناقضات ، هذا المنير ، أخذ جدتي من يدها وصعد بها إلى السطح العالي . وقفت هناك رافعة رأسها إلى السماء ، خجولة ، متوهجة ، جميلة مثل حورية ، بسط أمامها الحلم ، فاقتربت من الفرج ، أما الفرح فقد كان مؤجلاً شهراً واحداً .

أوقفها هناك وأجاب على جميع أسئلتها . كانت تريد لفريدة الأولاد الصالحين والستر الدائم . أن تبقى معها هنا ، تنيخ عليها وتنتظر ولادتها ، فريدة آخر الذرية ، عاشقة الطرقات الجديدة والأحلام الشاردة . فريدة ومنير . ضحكت جدتي ، ضحكت بصوت عال ، وبدت تلمع من كل أطرافها :

«والله العظيم لو أعرف أهلهل كان طلعت صوتي كله ، لكن حتى لو اعرف ، لساني مليان دم من أجل العزيزة . أبو عادل لا يعارض ، أنت تعرفه . عصبي وقلبه طيب . هو لا يحب إلا الحلال وكل حلال الله يباركه . وكلامك اليوم على رأسي ، توكل على الله ومبارك ابني منير» .

يقوم من مكانه ، يأخذ يدها ويقبلها ، تقبِّل رأسه :

«أف رائحتك «عَرَق» . أنت تشرب من الظهر . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

«أم جميل : هذا ليس عرقاً ، هذا روح الحياة» .

«اسكت أنت مثل أبو عادل ، عذرك تحت لسانك ، الله يهديك ويشفيك منه» .

تقف فريدة أمامنا ، بيدها صينية الشاي ، وعلى وجهها ضجيج الفرح . كل شيء صار صريحاً . لقد جاهر الذكر أخيراً . وانتظرت الأنثى هذا المجد .

تبتسم الأنثى .

فليتزوج الذكور الإناث ، لتطلق عمتك ألعابها النارية في السماء الشاسعة ، ولتصح مجدداً في وجوهكم ، في وجوه الجيران ، رجال المقاهي ، ونساء الحمامات ، في وجوه صبايا الحي وأطفال الشوارع . اجلسيها على مقعد العرس العالي وردّدي عليها الوصايا الألف ، لتمش فريدة المكهربة بكسلها الدائم وزلاتها الطويلة إلى العم منير ، ولتهتز طَرباً إذا نكس رأسها أو أوثق يدها . لتبلع بصاقه ، ماءه ، مخاطه ، ولتختفِ فريدة الأولى .

ابتهجي الآن ، تناثري عليه وعلينا واجلسي على عتبة الباب كما تفعل رسمية ، كما فعلت أمي وجدتي ، وانتظري مع الصفوف الطويلة ، صلعته ، قيأه . اذهبي إليه ولتبتكر لك راشيل ملابس الزفاف .

*

«خذوني معكم» . . خذوها تلك الهدى ، ولتحمل معك صرّة الملابس اللماعة بألوانها ، الأبيض والوردي والبنفسجي .

قالت جدتك : «عيني فرودة لو تعملين ثوباً بلون البنفسج تدرين أني أحب هذا اللون كثيراً» .

نطلع إلى أسواق بغداد يداً بيد . وجهاً لوجه مع المدينة التي لا أعرفها . نركب الحافلة الحمراء «شغل الإنكليز» أم الطابقين ، نصير في الطابق الأعلى . هذا دجلة المخنّث الرخو . أحب الفرات فقط .

أول ما رأيت الفرات ركضت صوبه . كان جرفه عميقاً وطينه كثيفاً ، وماؤه بارداً . أخذتنا الجدة إليه وتركتنا هناك ، زرنا البيت القديم ، طلع الأطفال والنسوة ، البنات والأولاد ، الحمير والدجاج . مشينا فوق روث البقر ، قطفنا التوت من الشجرة النازلة أغصانها إلى الأرض . كانت الوجوه حولنا تنضح عرقاً وسمرة صفراء . الصبية بالدشاديش القصيرة الممزقة ، البنات ينظرن إليّ وأنا ألبس حذاء بقدمي ، يلمسن شرائط شعري ، يضحكن ، يتغامزن ويلتصقن بي ، يتحسّسن ثوبي ، يدي . أدخل وسطهن . أتوهّج من مقدمة الرأس

حتى أسفل القدم . تتركنا الجدة وتدخل أحد البيوت . أصير بينهن وعادل يتسمّر في مكانه ، يخاف الوجوه والأماكن الجديدة . لا أعبأ به ، أتركه واقفاً وأسير مع الصبية . أخلع حذائي ، أفتح شعري ، نمسك أيادي بعضنا . ونركض إلى الشط . يشربون وأشرب ، ننثر الماء على الثياب والرؤوس . نضحك ، نصرخ ونتقدم للداخل . أمشي وأبتعد عنهم . الماء يأخذني برمتي . أفرد ذراعيَّ وأحضنه . أغوص وأتقلّب ، والصبية يمسكون شعري المبلول . يشدون ، يصرخون ، أمشي وأمشي وكأني أنتظر أحداً سيطلع ويحدثني .

طيور بيضاء تتعقّبني ، تخفّق أجنحتها وسط السماء الرصاصية . طيور لم أرها فوق دجلة ، بهية ، تلمع . أرجلها ناعمة وحمراء . ريشها نظيف . حركتها راقصة . تنحدر وتغوص . أصوات مناقيرها وهي تنقضّ على السمك الصغير تأخذني إلى محمود تتحدث معي تنزل إلى جانبي ، تصفّق بأجنحتها ، تتمهّل ، ترشف الماء وتنظر إليَّ . كل شيء يدخلني في حضنه . حضن الماء . حضن هذه الطيور ، ولمسة تلك الأيدي الملتهبة وسط الفرات ، وأنا أصيح على محمود .

قالت فردوس ، إنه مريض ، غافلت الجميع ودخلت حجرته المظلمة . أمه بالسوق ، فردوس بالقرب مني . وأنا واقفة فوق رأسه . أول مرة أضع يدي على لحمه ، كان يلتهب وأنا أيضاً .

محمود . . لقد كبرت عامين دفعة واحدة وانتظرتني ، غادر الحمى وتعال معي ، محمود أمي عليلة الرئتين ، وأنا مسلولة بك . بنفسي .

أخذت يده ، طويتها ، شممتها ، قبّلتها ، هذه أصابع أول رجل في حياتي .

نجح محمود بالمدرسة وسقطت أنا بالامتحان . ماذا بين الامتحان والمدرسة؟ أجبْني يا محمود .

أمسح عرقه وأنظر في الوجه الجميل . بشعره الأشقر الناعم القصير المجعّد . خداه ناريان مالحان ، شفتاه يابستان ، ودموعي لا تطلع . اتفقتما لن تبكيا ، كتبتما بالفحم الأسود ، على الطريق العام ، على سطوح البيوت ، وشناشيل المنازل ، اذا سقطتما في المدرسة ، أو مات الآباء ، جنّت الأمهات ، أو انتحر الجميع ، لو قتل الأخوة ، لن تبكيا .

توجّهي الى ذراعيه ، لفّي الذراعين على الذراعين واطلبي منه الضحك والشيطنة الأولى . اضحك محمود ، فالعمة فريدة ستتزوج بعد أيام ، العم منير سيقطع التآليل ويفجر القروح . وأمي ما زالت تحتضر .

انحنيت ، قبلته . فردوس تبكي بلا صوت :

«هدى أخاف الموت؟ التيفوئيد يميت هذه الأيام . كل هذا من السباحة ظهراً ، قولي لجدتك أن تقرأ على رأسه حتى تروح السخونة» .

«ما يموت» اتفقنا ألاّ يموت أحدنا قبل الآخر . لم نقل هذا ، لم نعرف كيف يقال .

ذاك الفرات يطلع من شموخه ويعلّقني في أفقه . وهذا دجلة الذي لا أرى وراءه أفقاً .

رجال يقطعون الجسر الخشبي العتيق . ونسوة متلفّعات بالعباءات

السود ، صبايا بملابس المدرسة ، أطفال يزحفون وراء الأمهات المتذمّرات . والحافلة بوسعها أخذي إلى آخر الكون .

قالت الجدة قبل الخروج : «اشتروا أغراض البيت أولاً ، وبعدين ملابس العرس والذهب» .

محمود ، صوت أمه ورائي . . وصوته أمامي . . «هدى . . هدى» .

تجرّني العمة من الشباك العالي : «يا الله وصلنا السوق» .

كل مرة تنزل معنا إحدى الخالات أو العمات . اليوم دور الخالة «نعيمة» ، صديقة بيت الجد الكبير ، رفيقة الخالة بهيجة ، وخيّاطة بيوت الشوارع الأخرى .

طويلة ، مخيفة ، لونها بلون الفحم . عيناها ضيّقتان ، بياضها يلمع ، وحدقتاها بلون البنّ المحروق ، أنفها معتدل ، وشفتاها غليظتان . شعرها مفلفل مثل الزنوج ، بدنها قوي وحركتها سريعة . إذا تحدّثت فكلامها هادئ رقيق . كنا نحبها إذا أخذتنا وبدأت بسرد القصص والحكايات ، ولا نطيقها عندما تغضب ، تنقلب بغتة ، تدخل في نوبات من التشنج ، تختض ، وترتجف . عيناها تتسعان وشعرها ينحل ، أصابعها تتيبس ، وملابسها تتمزق عليها . ننظر إليها وهي تتمدد على كنبة في بيت الجد الكبير ، الكل يختفي من أمامها إلاّ بهيجة خان . كانت تقف على رأسها تنقط الماء البارد ، تحمل «المهفة» ذهاباً واياباً على وجهها ، ثم تنزل اليها ، تأخذ أصابع يدها وتبدأ بالتدليك . تنظر اليها كما لو أنها ترى كائناً نزل من السماء وحلّ ضيفاً عليها وحدها فقط .

تظل الخالتان هكذا حتى يختفي كل شيء . تحتضنان . وتصمتان معاً . الخالة نعيمة لم تتزوج ،فاتت الأربعين ، أخذت من الملجأ بنتاً على الفطام ، أسمتها «زهور» . مطيعة ، خجولة ، ورقيقة ، تخيط لها أغلى الملابس وتنتظر لها العريس .

*

هذا يوم التفرُّس في الأسواق البغدادية . أنظم نبضي الجديد ، أقفز وألعب ، أفلت من الأيادي وأقف وحدي قليلاً فوق «الجسر العتيق» تمر الحافلات ، أقف وأسمع صوت ارتطام الجثث : الانكليز ، ونوري السعيد ، المظاهرات ، وإطلاق الرصاص . أجساد تستلقي على الجسر وأخرى تفر إلى النهر . والسيد «غانم» ابن حلاق طرفنا جاؤوا به من هنا ، محمولاً على الأكتاف ، دخلت الرصاصة ظهره ، نزلت إلى حوضه ولم تطلع ، شَلَّت ساقه اليمنى . فظل جالساً في دكان أبيه وراء الطاولة ، يأخذ الفلوس يكتب الأسماء ويلعن الانكليز . ترك المدرسة والشارع ، وانتهى في ذلك المكان وهو لم يبلغ بعد الثلاثين .

هؤلاء الرائحون والغادون ، وأنا على أعتاب الثانية عشرة . ما مر سيعود للظهور ، وما سيجيء لن يكون مجهولاً .

صراخ ، أصوات ، حافلات تروح ، تاكسيات تقف وتمشي ، أشجار صغيرة مرمية وسط ساحة الجسر ، أبنية ، عمارات زجاجها وسخ ، أمي لا تحب الزجاج المعكر . وجوه ، قامات ، ملابس ، سراويل ، عباءات «فينات» حمراء ، طرابيش سوداء ، «عكل» على

الرؤوس تقي الجميع حرارة بغداد التي تسطل البني آدم . روائح العرق ، الآباط الزنخة . أصوات السعال ، المخاط ، التجشؤ والبصاق .

رجل يبول على الحائط ، أباغتهم وألتفت ، أنظر وأقف .

نظراتك غير مبتذلة ، سمح لك بانتهاك المخيلة وأنت سمحت بالباقي : رجل يبول ، واقف ثابت ، أمامه الحائط ، ووراءه البشر أجمعين . ساقاه منفرجتان ، سرواله عتيق ، ومن داخل تجويف الفخذين يشرشر بوله على الأرض . وينزل سيلاً على الأسفلت ، أصفر ، مكهرباً . تعبرين البول الآدمي ، تعبرين شق الفخذين وقبل أن يغلق فتحة سرواله ، يلتفت إليك مبتسماً وهو يهز رأسه .

حين يطلع الوالد من الحمام يشد على بطنه المنشفة الكبيرة التي تطوي خصره وتنزل إلى أسفل الركبتين . تجلسني جدتي أمامها وتبدأ بقصّها الشري . تحكي وأنا لا أصغي لها ، أتململ أريد الوقوف أمام النافذة . إذا مر أو سار على مهل ، قد تنزاح المنشفة عن الشق وتريني ما يحرص أبي على ستره دائماً . لكن عادل كان في متناول يدي ، ولم أفلح في رؤية أي شيء . يشد سرواله بحذر ويقظة ، يرفعه إلى أعلى إذا خرجنا ، يدثّر نفسه بالشراشف إذا نام . وإذا نهض مكث مع الجدة والوالدة ، هما اللتان تتوليان غسله . هما اللتان أخذتا كل الحصص من الفرجة الأولى .

ذاك شارع الرشيد الطويل ، أعرض من شارعنا وأنظف ، أعمدته من الكونكريت الرمادي المبقّع الوسخ ، إنارته خافتة ، وأضواؤه قذرة . هذا جانب الرصافة وبين الرصافة والكرخ كان هارون الرشيد يسمع الأحجية والألغاز .

هذه بغـداد إذن . مـدينة المـدن . أرفع يدي وألوح لأمي قليـلاً . ما كـانت تطلع إلى الأسواق ، أوثقوها بحي الأعظمية ، تلعثمت هناك . جاءت من حلب ، تزوّجت في كربلاء ، حبلت على سرير من حديد بارد ، سعلت في الحمّام العتيق ، وأنجبتنا على الأرض . كانت جدتي تلح عليها بالخروج ، وكـانت تردد دائمـاً : «خـذوا الأولاد مـعكم واتركوني ، أريد أن أبقى وحدي» .

«يمه ، امشي معنا ، تفرّجي على السوق ، شمّي هوا جديد ، ألا تتضجرين من البيت؟» .

لا تردّ أمي ، لا تعـاند ، لكنها تدخل المطبخ . هناك كـانت تفرش بغداد على طاولتها ، تطبخها على مهل ، تحلم بها ، تقلبها ، تعرضها على نفسها ، وتصنع لنا الكعك ، ترش عليه السكر والجوز والزبيب ، وتدخل في النوبة . تنوح وحدها حين تخرج ، تدع بغداد تغتسل معها ، تحدثها في الغرفة الوحيدة التي تعرف ، الحوش الذي تنظف ، والمطبخ الذي تفتح مصراعيه أمامها . تغسل الصحون وتدعها نظيفة مثل عينيها ، وتترك في الملاعق رائحتها . تنادي ، تكبّر ، وحين نعود ، كنا نرى بغداد في جفنيها ، تحيطنا بالمعصم والساعد ، نفلت منها وتسكت . بغداد ، أمي أجمل ما فيك .

أصوات مطارق «سوق الصفارين» النغمات ، الضربات ، المعدن الأصفر مصفوف ، معلّق ، يضرب ، يعدل ، ويسوّى . الصفائح الكبيرة تطوى وتلف . وكل حركة تتحول بين الآيادي القوية الى أشياء ، كائنات : «صوانٍ كبيرة ، وطشوت ودلال قهوة وقدور .

والأيدي ترفع الصفائح ، المقصّ الكبير لقصّ المعدن والسندان العالي الرفيع يحشره الصغار أمامه ويبدأ الطرق . والسندان الخشبي العريض الغائر في وسطه ليحدّد الأشكال» . والزخارف ، النقوش ، الصور ، الكتابات والآيات القرآنية .

النار تليّن المعادن وتحرق القلوب . وعضلات الرجال تنافس عضلات المعادن .

العمال الصغار ، الرجال العجائز يلبسون اللباس الخام الطويل ، وأقدامهم حافية . الدكاكين صغيرة . السوق مسقف بشرائح حديدية رقيقة . المطارق تتعالى أصواتها . الأشكال تتغاير نماذج صفرية حمراء . . لا أسمع صوت العمة ولا صوت الخالة . هنا أستطيع الصراخ كما أشاء . أغني ، أسخر ، أقف ، أمشي ، وأتمهّل .

اللغات تتداخل ، كل شيء ينقضّ على أي شيء . أصوات الباعة تنهمر عليّ ، الأرض مجعدة لم تزفت ، مطينة . كل لحظة كانت نافورة من النار تطلع من بين فتحات الدكاكين . نار خائفة تنشر لهباً وغيماً أسود ورائحة نفاذة . لا أدري بماذا تذكرني ! .

الطرقات تفتح أمامي ، على اليمين زقاق متعرِّج قصير مسدود يذكرني بزقاق طرفنا ، وعلى اليسار ساقية مفتوحة على ماء بلون الرصاص . العباءات أمامي ، والآهات ورائي . الرجال يتلمظّون هذه المساحات الطالعة من شق العباءة ، ويحلمون بالمستور . والمنظر لا أشبع منه .

نقف ونمشي . تساوم الخالة نعيمة ولا تترك للعمة وقتاً للكلام ، تتركها تفرد صرتها وتدفع الفلوس فقط .

هذا طشت العرس الجديد ستغتسل به فريدة من دمها الأول ، وهذه صواني «النبي زكريا» النحاسية الجديدة ، المرصعة في الوسط والمحفورة في الحافات . ستضعون وسطها الشموع البيضاء الطويلة ، والحلويات ، نمدّ عليها أوراق الشجر الأخضر ليبارك لها النبي . أدوات وأباريق ، صحون وفناجين القهوة ، بسط وسجاد ، قلائد فضية وحلق صدئ . العمة تزخ رائحتها الجديدة . لم تشم ، لم تر كل هذا من قبل . تطلع الفلوس ، تحسب ، وتعدّ . هذه فلوس الجدة ، قرأت عليها قبل الخروج كي تطرح البركة . كانت مدفونة في الصرة العتيقة ، وموعودة لهذا اليوم .

ندخل سوق الأقمشة ، أمتار ، ألوان ، خيوط مذهبة ، أسلاك من الفضة ، شرائط من الحرير ، المبرد ، ورائحة الأقمشةتدوخني . الأوراد المفتوحة ، المربعات المسدودة ، الدوائر المقفلة . المحلات تقلب رأساً على عقب . الحرير يزخرف العروس والدانتيل يطويها .

صوت فريدة يطلع من وسط هذا الهرج ، يعلو ويطفو حين تصرخ وهي تلوح بالجاكيت العتيق عليّ : «قفي مثل الناس الله يساعد المدرسة عليك» . كانوا يجمعون لي ملابس الأقارب والأهالي الأبعدين والأقربين . يشطفونها ، يصبغونها ، يضيقون العريض منها ويقصرون الطويل . يخيطون الأذيال والأكتاف كي تلائم بدني النحيف . يغيّرون جلود الأحذية العتيقة ، يصبغونها ، يدقّونها بالمسامير التي كانت تخز أصابعي . يوم يحل الشتاء ينزعون الستائر القطيفة ، تأخذها أم ستوري لتُطلع منها معطفاً تلبسينه عامين ، ثلاثة ،

لون السماء وهي ماطرة ، ليس رصاصياً ولا أزرق ، تنزلين به للتراب والوحل ، تذهبين لهوبي ليتبقّع بالزفر والدم . وللخباز ليتلوّث بذرات الطحين وعجين الخبز .

برد بغداد يشلّ العظام ، دفء محمود يشعّ وهو واقف أمامي يلبس سترته العتيقة .

كان ينفض الغبار عن معطفي ، ينفخه في الطريق العام وأمام الجميع ، يظل يراقب الذرات وهي تتطاير في السماء : «عندما أكبر سوف أضع هذه الملابس في المتحف ليرى الناس ملابسنا . هدى سنلبس يوماً ملابس جديدة ونقرأ بكتب زينة . أبي يقول الوضع سيتغيّر ، لا أدري كيف؟ يقول أدرس زين حتى تصير طبيباً أو مهندساً ، وأنا أخاف من الدم كثيراً . تذكرين حين بصقنا بالشارع حتى نرى الدم ، ذلك الوقت خفت ، كأني رأيت دمي كله يمشي أمامي ، صار الشارع فقط دماً ، خفت وركضت للشط ، سبحت ، ودفنت رأسي تحت الماء ، بقيت أسبح حتى تعبت . كانت الشمس قوية وعيناي لا أرى بهما جيداً . ذهب الأولاد وتركوني وحيداً ، قالوا : محمود جنّ ، لكن لا أحد يدري ماذا حلّ بي . كلما أطلع رأسي من الشط أرى الدم ، وأرجع أدفنه حين غبت ، لا أدري إلاّ وأنا في البيت أصيح وأعيط وأصرخ ، هدى : «الدم الكثير يخوف» .

-٨-

اليوم سيسفح دم العمة .

فريدة أول قلاع هذا البيت . ابتليت به الجدة ، والأسياد : جميل ، منير ، عادل وأنا . كتيبة تضخّ حياة سرية . لا تملك أجنحة مضاعفة ، لكنها كانت تمتلك جمجمة مثل مسدس أبي . وبنية تعادل كل رجال طرفنا ، وصوتاً أسمعه في الليل يطرد الملائكة . هذا يومها الامبراطوري المبجّل . أسرارها ستثقب ، وكل شيء مقلوب على رأسه . هي ممدّدة في غرفتنا على السجادة ، فاتحة ساقيها ، شبه عارية . أم ستوري رفعت ساقها اليمنى . وأخذت اليسرى الخالة نعيمة ، الخيوط الغليظة تمشي على كل ساق ، تحف وتشيل شعر الأفخاذ والساقين . هي مثل الفولاذ ، تنقلب على بطنها ويطير الشعر بين العيون . مكعب الطبشور الأبيض يمشي على اللحم الأسمر ،

الذي تورّم ، احمَّر ، انتفضت خلاياه واحتقن دمه .

وصوت فريدة يخترع لنفسه غشاء جديداً : «آخ ، دعوني أرتاح قليلاً ، راح أموت» . الهلاهل تطلع مثل إعلان حرب . صوت أم ستوري : «اللهم صلِّ على محمد . لحم وشحم وحسن ، الله يسعدك عيني فريدة ، بعد قليل ونخلص» .

الخالة نعيمة : «اسمعي فريدة ، الرجل لا يحب المرأة المشعرة . وأنت شعرك قليل ، اهدئي حتى نخلص . سترين الماء ينزلق على جسمك مثل الحرير» .

يأخذن الذراع ، يصلن الإبط . تعيِّط العروس وتخمد : «راح تتخدرين بعد قليل» .

العروس تلبط بين الأيادي ، تستند إلى الحائط ، تأخذ رأسها أم ستوري ، تثبته بين يديها وتقدم وجهها للخالة نعيمة . يمشي خيط البكرة الرفيع على الخد ، الحنك ، والوجنتين ، تصرخ : «دعوا حواجبي» .

«اليوم أنت تسكتين» .

فريدة صارت مثل تينة ناضجة . خداها مبقعان ، جبينها أحمر ملتهب ، حاجباها أزيلا إلى النصف . جمالها صار مقلوباً على رأسه . شعرها رفعته بشريط رفيع . رقبتها تدور وتتحرك . الخالتان تنزلان إلى الصدر ، تقفان أمام الحلمتين والشق الناري . وبالملقط ترفعان الزغب الناعم الأشقر . تلمسان وتنظران . أشعة مكبرة تطلع من البطن

التي انطوت قليلاً . تنزلان إلى أسفل وتزحفان للحلم الأخير .

«هذه هدى أيضاً واقفة أمامنا . أمشي اطلعي بره» .

صوت الخالة لائقة : «لمَّا تكبرين سنزوجك نحن ونفرح بك . يا الله روحي مع الأولاد» .

الأولاد ، الأطفال ، الحوش يغوص بالنسوان . لم أرهن من قبل . أعرف رسمية ، الخالات ، العمات ، أم ستوري ، أم محمود ، أم هاشم ، أم غانم ، وزوجات أصحاب دكاكين الحي . الكل يتوافد على حمام البيت . يغتسلن ، يجففن ، يبدلن ، يمشطن ، تفوح الروائح ، العطور الرخيصة ، الأصوات المباغتة ، الهمهمة بين الأفواه ، النميمة بين اللثات تطلع : «أي هو منير ابن عمها ، شكله يخيف الأولاد . لكن عنده فلوس قارون وحظ يكسر الصخر . لم يبق أحد لم يخطب فريدة لكن الدنيا حظوظ» .

«عيني هذا نصيبها ، أي ، هي حلوة . لكنها مغرورة . نفسها حامضة ، ولسانها يقصّ مثل المنشار . الله أكبر لو تفتح فمها على أحد» .

المطبخ دخل الطوفان هو الآخر . وقفت الخالة بهيجة وشمرت عن ساعديها أمام الطناجر . تشيل الزفر ، ترشّ الكمّون على الرز واللحم . . تقلي الكبة ، يهتز حوضها وهي تعجن عجين «البورك» ، تدير الملعقة الخشبية الطويلة في طنجرة الحليب ، تنفخ على الرغوة وترش الزعفران والدارسين على «المحلبي» .

الخالة نجية قربها تخدِّر الشاي ، تمسح الاستكانات ، الملاعق ،

الصحون . السكاكين صوتها يقطر شهوة وغيرة : «من دعا نعيمة؟ أكيد أنت . هل تريدين أن أموت وراءك؟ . ألا تشبعين من النسوان؟ . . أخ لو بيدي كنت قتلتك وارتحت منك» .

الزفر ، روائح الطبخ ، رائحة الضحكة المكتومة التي تطلقها الخالة بهيجة . روائح الأصابع المطلية بالدهن والدبق . المنامات الطويلة لا تطلع من بين أبخرتها إلاَّ هذا اللهاث . يصير المطبخ دافئاً بأبخرة الأغذية الشهية ، خروف العرس قطعت أفخاذه ، أخرجت مصارينه ، سلخ جلده ، صنفها «هوبي» وأخذ حصته مقدماً : الرأس . صوت الجدة : «أتركوا شوية لحم حتى نوزعه على الفقراء بالجامع ، هذا اليوم فضيل عند الله» .

كل شيء يتلاطم ، لحم الخروف ، ولحوم كل هؤلاء النسوة . الخالات ، ناهدة وزبيدة .

الأولاد الصغار والبنات يتفرّجن ، يتحرَّكن بين الغرف ولا يعرفن ماذا يعملن . الجدة «وفيقة» تروح وتجيء بين الجميع . اغتسلت قبل الجميع ، ولم تغيِّر ملابسها بعد . حضَّرت الصاية الحريرية الجديدة ، المشجرة بنقوش بنفسجية . . كانت تعشق هذا اللون وتغلط في لفظه ، تضربنا ونحن نضحك عليها وهي تردد : ««بنو نسجي» أي أسناني راحت ولساني أعوج من القهر» .

يسمونها اليوم «أم العروس» ، ينادونها أم جميل ، أجرّها من ثوبها : «أريد أمي متى ستجيئني يمه؟ اليوم عرس عمتي» .

لم ترد . عادل ارتدى ملابس العيد القديم ، بنطلوناً طويلاً بلون

السكر الوسخ، وقميصا أزرق. حذاؤه الجديد. مشط شعره، ووقف حائراً أمام باب الحوش. لم يتحدَّث ولم يمازح أحداً. لمَّا تعب جلس على الدكة، النسوة يدفعنه قليلاً كي يعبرن وهو لا يتزحزح.

فردوس تدور معي بين المطبخ وصواني الزلابية والبقلاوة.

الحوش قلب عن الآخر. جلبنا كراسي الخيزران من بيت الجد الكبير وبيوت الجيران، صفت في الطرف الأيسر، وتوزعت الطاولات الصغيرة أمام كل كرسي. مدّت الحصران الجديدة على الأرض، في الطرف الأيمن. والفرش المندوفة حديثاً غطيت بشراشف نظيفة. سندت على الحيطان الوسائد الكبيرة. الأقداح تلمع، الصحون والملاعق طلعت من صناديق السطح العالي. وضعت كلها على طاولة مستطيلة في أول الممر.

هذا عرس البنيّة الأولى. مات للجدة ثلاث بنات وولد، وبقي جميل وفريدة وبينهما خمسة عشر عاماً من العمر.

أصعد إلى السطح وأهمهم مع صوت أبي الأول. اليوم لا السيد جميل حضر، ولا الخالات وداد وإنعام.

أخوض وحدي في تلك الأسوار التي تهدّمت. فالإعصار حصد كل متروكات الغرف. السطح الذي كان جسراً يأخذني إلى السماء، احتشدت به هواجس جديدة. العم منير رتق أرضيته، بلّط طينه الخاسف بالكاشي الملوّن، صبغ الحيطان باللون المشمشي الفاقع... وتقهقرت الاشياء الأولى. طلّعها منير أفندي من الصناديق والغرف السرية، وبنى غرفة العرس.

اشترى السرير العريض الكبير . أطّره بالحديد الأصفر اللماع ، المرصع بالمقرنصات في الأعلى والوسط . جلب القطن الجديد ، ندف القديم ، وصنع لحافاً بطّنه باللون الأصفر المضلّع البرّاق . اشترى الخزانة ذات الأبواب الأربعة من خشب البلوط ، وطاولة بجوارير أسندت فوقها مرآة دائرية . وكرسياً صغيراً ، قصير الأرجل ، وجهه مخيّط بالقطيفة الكمونية . بدَّل زجاج سقف الحوش بآخر ملون ، مشجَّر ، جديد .

على السرير فردوا فستان النوم الوردي العاري الصدر . «والروب» المشغول صدره وحوافي ذراعه بالدانتيل وخيوط الحرير . «بابوج» العروس على الأرض ، عال يلمع ريشه العريض . أفتح الخزانة وأرى ملابس العروس . الصرر مصفوفة ، هذه ثياب الأيام السبعة الأولى ، تهب العطور ، ماء الورد ، فتات الخزامى الحاد ، الأزهار اليابسة صفّت بين الصرر ، وكل شيء مرتب ، لامع ، يبرق . أزرق ، أحمر ، وردي ، أصفر : أفتح وألمس ، أتنهد ، وأحن . هذا ركن ملابس راشيل ، وهذه خانة الخالة نعيمة . وبين هذا وذاك كانت بدلات العم منير واقفة ، أنيقة ، جديدة ، مكوية مثل حرس الحدود . ملابس اقبال خزنت منذ سفرها في حقيبة صغيرة ورميت فوق الدولاب . فستان عرسها الأول ، محرمتها الحريرية الوحيدة ، وطوق شعرها . صورتها مع الوالد في يوم الزفاف وضعتها أمامي على الرفّ قرب القرآن . . .

هذا حمّام السطح الجديد . «الأدب خانة» . الإبريق من المعدن الفضّي ، اشترته الخالة نعيمة . هذا طشت الغسيل الأول . الحنفيات

تلمع ومقابض الأبواب . الغرفة الأخرى صفّ وسطها طاقم من الكنبات الجديدة ذات المساند الخشبية العريضة . صعدت النسوة هنا ، علقن ستائر المخمل ، وزَّعن عيدان البخور ، أوقدن أطرافها بالليل ، وظلّت تلك الرائحة تذكّرني بجامع أبي حنيفة في ليالي الزيارات الكبيرة .

سعال أمي غائب اليوم . السطح ترنّح مرة واحدة ، فلا أحد طلع من المطمور ، ولا أحد سأل عن الغائبة . ومن بين زجاج السطح ، أطل على الجميع من أعلى . صار السطح لعمتي والسيد منير ، ولم يبق أمامي إلاّ قيراط من هذه السماء . أمَّا الأرض فقد كانت نوعاً آخر من الحمى والسعال .

صوت فردوس ورائي : «ماذا تعملين هنا وحدك؟» .

تنظر بكل عيونها وتردِّد : «الله ، حلو جهاز خالتي فريدة» .

تفتح الدولاب ، تنظر ، تشهق : «ساكتة وحزينة ، أدري تذكرت أمي ، امشي ننزل ، عمتك ستطلع بعد قليل للحوش . تعالي انظري إليها بثوب العرس ، هي لا تشبه عمتك الأولى . هداوي . . الله كريم ، أمك ترجع بالسلامة» .

بين الدرجات تهمس بأذني : «محمود واقف بباب الحوش يريد أن يراك» . لبس هو الآخر بنطلون المدرسة وسترة العيد ، وحذاء جلدياً طلعت أصابعه النظيفة منه . شعره بلون الكركم المطبوخ ، لم يمشطه . خرج من الفراش والحمى . وقفت أمامه على الدكة الحجرية . كبر محمود وصرتما لا تتبادلان إلاّ النظر فقط . راحت

رشاوى الضحك الأول . تقشّرت مصطبة المدرسة . وتفتتت أوراد الحدائق التي كنتما تضيعان وسطها . قدِّمي له البقلاوة ، دعيه يذوق عرس فريدة ، اقسمي معه السكر المغمس بالأحلام . اطرحي جميل على الأرض وبقّعيه بدم أمك الغائبة .

لم أكره أبي ما فيه الكفاية حتى الآن . لم يحضر . غضب ، عربد ، خاصم ، توعّد . ولم يوافق على هذا الزواج . ظل بعيداً ، لكنه أرسل قائلاً : «بعد كم شهر سوف تطلّق فريدة وتجلس أمامك . منير بيته البارات والقحبات» .

لم تصغِ جدتي ، ولم ترفض عمتي . بقي صوت أبي يهرول بين الحجرات وطبلة أذني . أسمعه وحدي ، أجمعه في رأسي وأقترب منه . . أول مرة يلتهب ذلك الصوت وأتبعه .

لكن البيت ظل يبعد صوته ، والليالي تقترب ، بغداد تفتح أكمامها وتغلي ، محمود ما زال يغلي أمامي ، صوت عادل : «هداوي أريد شوية حلويات» . بيدي صحن الحلويات . ونحن واقفان . محمود مريض ، وسيم ، نظيف ، «لماذا طلعت من الفراش؟» .

لم يردّ . يدي تلامس أصابعه . . الصمت ودبق السكر وبلاهة الناس الذين يمرون .

النسوة اللائي يدخلن . ومن بيت الصمت ينزل الدبق .

«مبارك هدى ، باركي خالتي فريدة» .

«محمود أنت . . كيف حالك الآن؟» .

«أحسن شوية» .

«بس يدك حارة ووجهك أحمر» .

يلتفت عادل . هو يحب محمود وهذه الأخت .

«اليوم أنت مثل الوردة» .

لن أنكس رأسي ، سأحفظ هذا التاريخ جيداً .

«ثيابك حلوة وشعرك . أقول متى ستفتحين الضفائر؟» .

احك محمود : اكتب ، صرِّخ ، بشر ، ولا تقتصد . وصوت أم محمود ورائي :

«من أخرجك من الفراش؟ تريد تموت وتموّتني وراءك؟» .

«البقلاوة بين الأصابع والبلعوم . عادل يمسك يد محمود : «إمش ، سأذهب معك ، إني ضجر هنا وحدي» .

الخَيالان يبتعدان ، أذان المغرب يسمع من جامع أبي حنيفة ، البخور يتصاعد داخل ثقوب الحوش ، يرش ماء الورد على الوجوه .

تقرأ الصلوات . العروس تطلع . كرسيان عاليان نصبا وسط الحوش . سعف النخيل رص في طشوت كبيرة ، وتوزعت في الوسط شموع بيضاء كبيرة أُوقدت وطلع لهبها العالي . صواني الشموع الصغيرة فوق الدرجات ، في الممرات ، على مداخل الغرف . ورق النعناع ، حبات الهيل ، والسكر المطحون بالجوز وضع في كاسات صغيرة مذهبة . «الحامض حلو» يرش على الرؤوس . صوت أم ستوري يهلهل ، وأنا أنظر إلى حركة لسانها ، ورأس عمتي يقوم بتمرينه الأول : هي العروس ، وهي الفريدة . هي التي تدعو لها الجدة بصوت عال يسمعه الجميع :

«ربي ثبّت أقدامها على الخير والراحة . ربي اسعدها وخلّني أرى أولادها . اللهم صلِّ على الرسول محمد . عيني هلهلوا يا حبايب ، أين أصواتكم؟» .

أم ستوري ، بهيجة ، نعيمة ، عيني أم محمود ، ان شاء الله لما تعود اقبال من السفر نعمل العرس من صدق .

الهلاهل ، الأصوات ، الهرج ، الصلوات ترش على الجميع . نساء الطرف المحبوسات وقفن وتفرقن على الزوايا ، ينظرن ويبلعن ريقهن ، ملونات ، مجلوّات . طلع الذهب من صناديقه ، تلوّنت الوجوه بالأحمر والأزرق . الصايات «والهاشميات» العراقية الزاهية المشغولة بالذهب والفصوص .

نجية تسعل وتهلهل . . بهيجة تهز وسطها وتأخذ بيد الجدة وتدبكان وسط هرج الأطفال والنسوة . العمة على وشك السقوط . وما بين غرفتها والحوش أمتار قطعتها بدقائق . الجميع يريد الفرجة ، هذا الغموض في وجه العرائس .

فريدة مصبوغة ، وجهها يلمع ، حواجبها تقوّست أكثر ، إلاّ أنها بدت بشعة . أسنانها ناصعة ، بشرتها متوهّجة ، شفتاها بلون الشوندر الجديد . بإصبعها خاتم الزواج الذهبي ، وآخر بلون الزمرد ، على صدرها قلادة من اللؤلؤ ، هدية الجدة ، وحلق اللؤلؤ هدية الخالة بهيجة . خواتم ، أساور ، عقود من العمات والخالات ، نعيمة ، زبيدة ، ناهدة . . الفستان الأبيض أزراره في الصدر تلمع ، وفي الخصر حزام عريض بالتفتاه نازلاً إلى الورك .

(الدواغ) فوق رأسها مشبك بالورود الاصطناعيّة الصغيرة . ينزل على الرقبة ويمشي إلى الكتف والذراعين ، ثم يصل الظهر . وهي لا تعرف ماذا تفعل بيدها . مرة تصعدها إلى أعلى وأخرى تنزلها إلى أسفل . من يمينها كانت الخالة نجية ، وعلى يسارها الخالة بهيجة ، وفي الوسط كانت نعيمة تفتح الطريق وتنظر إلى الخالتين بصمت . والباقيات كن يمشين وراءهن . يقفن ، يتمهّلن ، ويطلقن الآيات والزغاريد . يزحن عن الطريق الأطفال ، المنادر ، وصحون الحلويات .

هذه العروس إذن . هي لا تشبه فريدة الأولى . أنا لا أحبها هكذا .

أقف قرب صينية الشموع . تنادي عليّ الخالات والجدة : «تعالي امسكي «الدواغ» مع عمتك ، انظروا ، حتى في يوم الفرح تعاند» .

لا أتحرّك ، أنظر وأنا فوق الدرجات ، إلى الجميع . فردوس قربي تجر ساقها تؤخر الأخرى . . . آخذ من بقايا الشموع والسوائل ، أصنع كرات ، وجوها ، وأنظر إلى أعلى . تجيء أمي ، ترتدي ثوباً حريرياً طويلاً أبيض . صدرها مكوّر بارز . طولها ينتفخ مثل إله هارب من الأرض . لا تلتفت ولا تتكلم . تنظر إليّ فقط كأنها مخمورة . تمشي وتتصرّف مثل سيدة تعرف أملاكها الخاصة . تسير صوبي ، تلامس وجهي . تفرد شعري بين راحتيها ، وتدور بي ، تمسك بيدي ، تضغط عليها ، ترفعها إلى أعلى ، تبوسها ، تشمها ، تمسّد بها على خديها اللذين سمنا ، كبرا ، توردا ، و تألّقا . شعرها صار أطول من شعري . شعرها محلول ، ممشّط ، لامع ، نظيف ، مفروق من

الوسط . في أذنيها حلق من الماس يلمع ويتحرك كما تحرّكت . وأنا أدور معها ، أرقص ، نرقص . نفتح غرف الحوش واحدة واحدة . نفتح الدواليب ، الجوارير ، الحقائب ، الصرر ، الصناديق ، نشيل الأغطية ، نفتح النوافذ ، نمشي على رؤوس الأصابع ونغني كما لو أننا نلتقي ببعضنا أول مرة ، يطلع صوتنا . لا نلتفت ، لا ننادي على أحد ، لا نتذكر الذين نعرف . تمسكني من الخاصرة ، أطويها من الذراعين ، أطول ، نتطاول ، نكبر . تصير لنا أجنحة ، وتفتح لنا البيوت الصغيرة والكبيرة . لا نكرِّر ما نغني ولا نذكر ما نقول . كل شيء يطلع منا وكأنه يعرف وقته . تأخذني مثل طير الرخ . من البيت والطرق والشارع . ترتفع ، ارتفع ، أطير وأمسح وجهي بوجهها ، بعينيها اللتين لم تبصراني حتى الآن . كانت عينا أمي قد صارتا بحجم السطح وهي تفلت من يدي . لا أراها ولا ألحق بها .

بغتة ، كل شيء يصمت . السيد منير يتنحنح داخلاً . تتعالى الهلاهل وبحركة من يده يسكت الجميع . ينادي على جدتي ، يدخلان الحجرة . صيحتها أسمعها وحدي : «الله أكبر . راحت . ويلي عليك اقبال . اللهم لا اعتراض على حكمتك يا أرحم الراحمين ، يا الله» .

«يمه قولي : صدق راحت أمي؟» .

اطلعي واطلقيها ، أصفقي الأبواب وراءك وافتحي نوافذ كل البيوت التي أمامك . تبولي على الوسائد والذهب . على صلعة منير ومؤخرة العمة فريدة . دوسي الحصران والبسط . ولولي عيِّطي .

فاليوم السابع والعشرون من رمضان . قالت الجدة : «العرس في هذا اليوم بركة» .

والموت في هذا اليوم . . .

اليوم الزائرة الجديدة ، اقبال «التي راحت» . اليوم تطلع الشعريات الشريفة من قارورتها الثمينة . الله قاطعني ولم يبق إلاّ الرسول . اهتفي في حضرة النعمان بن ثابت كل ما تحفظين من الشتائم . اطلقي صيحتك المكبرة في كل مكان ، وارفعي نعش أمك الخاوي على أيامكم القادمة .

-٩-

الى جامع أبي حنيفة ، ركضت ، سقطت ، قمت ، نحت ، خبطت بيدي على وجهي . ولم أفكر بأحد .

هذا الحشد أقف معه . أهل الطرف الهائمون . الصفوف طويلة تتدافع ، أنفس تثنى الأذرع والسيقان ، أصوات تتداخل بالصلوات والدعاء : «دخيلك يا ابن ثابت» يدورون حول الضريح بقبته الفضية وأعمدته المقرنصة . يلوبون ، يرتعشون . أطفال ، عجائز يشدون خرقا خضراء وبيضاء على شباك الضريح . الأيادي تشبه أزهاراً بعثرتها العاصفة . الجدات والأمهات يرفعن الأولاد والبنات إلى أعلى الأكتاف ، يقبّلن الأعمدة مثلما يرضعن الشدي ، الأبدان كلها تنتظر البركة . الأصوات مبحوحة ، غليظة ، نديّة ، حائرة . العباءات سوداءتتماوج على القامات . تسقط ، ترتفع ، وتعاد على الرؤوس

الملتاعة . مناديل ، أغطية ، مناشف تُشد على الرقاب المعروقة . بخور لم أشمَّه من قبل يذكرني بالتوبة ، لا أعرف أين وضع ، لكنه كان يختلس لنفسه حيزاً ويطير بين الأنوف مثل نعاس الفجر .

الوجوه تلمع من العرق والتعب والدعاء . الظهور تنحني وتقوم . الخطى مرتبكة ترتجف ، تصطك . الحصران المتآكلة والبسط الرثّة تتحرك كاشفة عن بلاط مبقع مالح رطب .

الأقدام حافية ، الأصابع نحيفة ، العيون وارمة . الأظافر وسخة وطويلة . المساحة عريضة ، شاسعة ، أكبر من حوشنا عشرات المرات . وفي الزوايا الأربع أوقدوا شموعاً صفراء مذهّبة ، عريضة ، كبيرة ، تشبه النخلات التي نلعب أمامها في الأعياد ، يتطاول لهبها بين لحظة وأخرى كلما تمر الصفوف أمامها . تشتعل وينزل سائلها على الأحواض التي تحتويها .

حشد النساء ينتظر السيد -عزيز- «متولي» مسجد أبي حنيفة . الأمهات ، الأرامل ، الأخوات . سدّوا منافذ هذا المكان . أصيح بينهم : «يمه . يمه . يمه» تطلع الصلوات عالية لتوسّع الطريق للمتولي .

ليلة السابع والعشرين من رمضان ، كل طرفنا ينفى هنا . ينيخون أمام القبة ، يحلمون ، يسهرون ، يسمعون الأدعية ، ويطيرون معها منتظرين «شعرايات» الرسول المخبأة طوال العام في الغرفة الصغيرة ، في الصندوق المذهَّب ، في المكان الطاهر ، وراء الجامع وقريباً من المقبرة . تطلع اليوم من مخبئها ، ملفوفة بقطعة قماش من الصوف

الأخضر السميك المعطر . والشعرايات تسبح في قنينة مستطيلة منبسطة زجاجها تعكر قليلاً ، عائمة وسط ماء الورد .

مئات الأيدي تريد اللثم واللمس . رؤوس تتوهَّج وتفتح صوتها ، تعض على شفاهها من الفرح : «اللهم صلِّ على الرسول محمد» .

الأبدان تومض ، واسم النبي يطلقه الجميع متعدّد الطبقات ، برنين رفيع ، سري ، صاف ، يطلع من الكبد ويغطّي حي الأعظمية بأسره .

الأمهات يحملن الأولاد ويدخلن في هذا الفوحان ، يصلن كف السيد عزيز .

أقذف وأدفع ، أنفلت وأقفز بين الصفوف : «حجي عزيز اني أريد أبوس الشعرايات» .

أخذني الزحام ، دفعني بعيداً . أختنق ، أضرب ما حولي وما أمامي . . أدور على نفسي وأفتح صوتي : «الله يخليك حجي» . أمسك ضفائري بين أسناني الأمامية . أشدّ عليها . أسحب وأجر ، أروح وأجيء مثل موجة مجنونة . ثيابي ترفع وتنزل . أشعر بالعطش وأصرخ : «حجي أمي راحت» .

الأصوات تتداخل وتطير أمامي : «شفاعتك يا رسول الله» . تدفعني الأيدي والقامات ، أتكوم أمام يد الحاج عزيز . أجر «زبونة» الجديد وعباءته الترابية اللون بيدي . أرفع رأسي إليه . كان وجهه حزيناً وكهلاً . لحيته لم تحلق ، عينه بيضاء مثل بشرة جدتي . وصوته رطب : «يالله بوسي وادعي ، اليوم ، كل الدعوات مستجابة . الله يحميك ويهديك على الصراط المستقيم» .

منوّمة كنت . الروائح والأنين ، الدعاء والصلوات ، والبكاء الذي لا يسمع . قطعة القماش الأخضر ، رائحتها غريبة . أحضنها بوجهي ، ألمس القنينة ، يضعها على رأسي ، يمشّيها فوق شعري ، ألمسها ، أبوسها ، يد السيد قوية ، كفه عريضة وأصابعه مغضّنة . أدور أصيح ، والأصوات من حولي تدفعني : «اللهم صلّ على الرسول محمد» . البكاء يدخلني في حماية هؤلاء : «يمه ، يمه ، إلى أين ذهبت؟» .

الأصوات : «أنت . يكفيك بكاء ، نحن نريد نبوس ونشم . الله أكبر حتى بهذا المكان الطاهر يطلع الطمع» .

الصلوات تدفعني بعيداً ، الصفوف تلقي بي الى وراء . اليوم لم أطلب أي شيء ، لم أوثق أحداً ، ولم أكفّن أمي . تمدّد جثمانها أمامي بلا أطراف ولا أقدام . مجرد رأس مجروف من الملامح .

أنظر إليه وأنا أتقدّم على بلاط الجامع . وجهها يتلألأ بلا كفن معطر ملغز ، لا يصطدم بأحد ولا يبتدع لنفسه إلاّ هذه العفّة .

أتمخّط بذيل ثوبي ، أمسح دموعي ، أجلس وأسند ظهري على الحائط . الحصران يابسة قاسية ، أصوات الصفوف صارت بعيدة . أرى البقايا ، ورق مجعد ، شرائط سقطت من الضفائر ، دبابيس الشعر الصدئة ، أزرار مقطوعة ، أوراق من «الياس الأخضر» ، الورد الذابل ، وقطع من النقود الصغيرة .

العجائز افترشن الأرض قربي ، يمسحن العيون والخدود . يعدلن أغطية الرأس . ويتنهّدن . أدير وجهي ، رأسي ، بدني إلى الحائط . أتمدَّد وأغطي عيناي بشعري . لا وقت لإغماض العينين . اضربي

كلام محمود واستعدي للويل ولا تعودي إلى البيت . اجلسي هنا ، واهربي من هناك ، نامي هنا . ارفسي بيتك وساكنيه ، فليذهب أهلك لاقتفاء أثرك ، ليخرجوا أفراداً وجماعات ، حاملين المشاعل أو العصيّ . لو رأيت أحدهم الآن لسفحت دمه .

الصوت ورائي : «أنظري أليست هذه هدى ابنة جميل ، لو أنا غلطانة؟» . ترد الأخرى : «يمه ، انت هدى . ليش نائمة وحدك هنا . اليوم عرس عمتك . ها . أين أهلك؟ عجب يتركون طفلة وحدها بالمسجد» . خرب العرس ، أو ماتت العروس ، مشى الموكب باحثاً عنك ، أو فتحت كل مجاري البالوعات ، إذا ذهبت الجدة للصلاة ، عادل للذهول ، محمود للحمى ، وأبوك للجنون . فاض دجلة أو مات الملك . لو . لو . . فلن تعودي .

من بين الأصوات يجيء صوت رسمية . إذا عرفت ، إذا رأت ، إذا جاءت فلا ينفع معها أي شيء : «هداوي انت هنا البيت كله مقلوب عليك . أويلي عليك يمه تيتمت . انتظريني أزور ونرجع للبيت» .

أدير رأسي نحوها وهي تبتعد . على امتداد قامتها المغطاة بالعباءة السوداء ، كان صوتها يتعاظم في أذني وأنا أسمع رياح الضرب والجلد ، أنصت لفحيح الزوج !

«إلى أين تأخذين فلوس الأبر؟ سهر وسبرتو وقطن ، تولدين وتطرحين وكلما أفتح الحقيبة أراها فارغة . ها . قولي ، إلى أين تأخذين الفلوس . لأهلك ، لو لأخيك القواد . ها؟» .

صوتها يعلو بوجهه : «اسمع ، لقد صبرت عليك كثيراً . أنت الذي

تسرق رزقنا، وتضعه على طاولة الحرام. راتبك يخلص من أول الشهر. وأنا أدفع كل الديون. وكل الطرف يعرفك ظالماً ومؤذياً».

لم تبك رسمية. لم ير أحدٌ دموعها، إلا أن الجميع كان يرى وجهها مزرَقاً، أنفها وارماً، ويدها ترتجف.

كلما أهرب من المدرسة أقف أمام باب حوشها المفتوح على الدوام. أنظر إلى المارة وأنا أجلس على الدكة الحجرية. ستارة بابها يطيرها الهواء إلى أنفي فأشم رائحة الدهن المطبوخ وأرى ثقوبها الكبيرة. بيتها قريب من حوشنا. حين يطلع أبو ايمان يراني أمامه:

«ها هدى! ألم تذهبي اليوم للمدرسة؟».

«عمو طلعنا اليوم، معلمتنا مريضة».

عندما يبتعد، يفتح الراديو وتبدأ رحلة التنظيف في الداخل. رسمية كانت تبلع الضرب وتغني. يطلع صوتها إليّ وأنا أردّد معها بصوت واطىء. كانت تضع خواتم ذات فصوص كبيرة ونافرة في أصابعها القصيرة. وفي زندها الغليظ المشعر، كانت أساور الذهب تلمع، مرصوصة، سميكة، وبراقة. حين تطلع لغسل الدكة، تقف أمامي وبيدها سطل الماء، تتباطأ وهي واقفة:

«كل يوم تهربين من المدرسة؟».

كانت منامتها تفوح منها روائح العرق والطبيخ والدموع المكبوتة. نهداها على وشك التقدم إلى الشارع كله. شعرها أسود ترفعه إلى أعلى بمنديل رخيص أحمر، رقبتها قصيرة، ذراعاها عاريان، ضحكتها مجلجلة تبرز سناً ذهبية في فكها الأعلى. حين أرفع رأسي

إلى وجهها لا تنظر إليّ . تبقى تغنّي . وجهها أصفر وفي حنكها وشم أزرق خفيف ،عيناها ضيّقتان سوداوان ، رموشها كثيفة ، جسدها مشدود ، قامتها قصيرة . والسطل ما زال بيدها . أقوم واقفة : «صباح الخير خالة رسمية» .

«حرام على الكتب والدفاتر ، تقولين طلعت قبل درس ، ها؟» .

لم أردّ . أسمع تنفّسها الشديد وهي ترى أبا محمود بائع الجبن أمامها . دكانه مقابل دارها . يمسح وجهه ، يعدّل غطاء رأسه ، يسوّي «زبونه» المقلم العتيق ، يكشّ الذباب عن الجبن ، ويرفع قطعة جبن بيضاء داخل فمه . ينظران لبعض ، وشق صدرها صار أمامه . يطلق صوته : «جبن عرب ، جبن كرد ، الذي لا يشتري خلٍّ يذوق» .

تضحك بيسر وعذوبة . ترشّ الماء قطرة وراء قطرة . السطل بين يديها وهي تنحني . نصف قامتها أمامي ، وكل وجهه أمامها . يبتسم ويقضم الجبن . يرفع السعف ويرتب قوالب الجبنة . أبتعد وأقترب والماء يتعقّبني ، رشاته وصوته . المارّة يقفون أمام دكانه يشترون . يبيع ، يلف ، يكسر ويزن . ثم يمسح فمه بيده . يدور أمامها ، وتقف أمامه ، الماء خلص . الدكة نظيفة ، الراديو ما زال مفتوحاً . وصدرها . . كتبي المدرسية تقع على الأرض .

كل يوم أجر من على سور السطح العالي وانتهي في الحمّام . عمتي تغسل وجهي ، تمشّط شعري ، وتشد الشرائط في ضفائري ، تلبسني صدرية المدرسة الزرقاء الكالحة . تدرجني أمامها . تمسكني من ذراعي . تركض ورائي وأتملّص ، من صوتها وعياطها . وتعثر

عليٍّ . دائماً تعثر عليَّ وتأخذني بيدها إلى باب المدرسة ، لا تتحرَّك إلاَّ بعد أن أغيب عن نظرها . قبل أن أخرج من البيت أسرق خمسة فلوس من جدتي ، أضعها بيد «أبي محمد» فراش المدرسة . يفتح لي الباب ، وأصير في الشارع بعد الدرس الثالث .

صوت عمتي يشق مقدمة رأسي وأنا أدور بالشوارع : «جلدك تمسح ، حتى الضرب لا ينفع بك تريدين ترك المدرسة حتى أجن تماماً؟» .

أدور في حديقة النعمان ، أطلع إلى السدة الترابية وأنظر إلى دجلة والصيادين ، أنزل إلى حديقة الأعظمية وأنتظر فردوس وعادلاً هناك . أقرأ إعلانات الأفلام العربية . ووجه فاتن حمامة يغطي الحائط كله . وجه حزين ، مريض مثل وجه أمي لم تأخذ ابراً ولا أدوية . وفريد الأطرش يقف وراءها مكسراً مثل الثلج الذي نضعه في أقداح «الشربت» . تقول فردوس عنه :

«أف ، كأنه يريد أن يتقيأ . لا أدري كيف تحبه بنات الصف؟» .

يبتسم عادل ، أقهقه أنا . ومحمود يطلع من بين الأشجار القصيرة أمامنا :

«اليوم أيضاً طلعت من المدرسة؟» .

لا أردّ . كنا نسير معاً . ، محمود يحدِّق إلى البعيد . لا يرمش ، لا يهتزّ . مدرسته ابتعدت ، سرواله استطال ، وفخذاه تضخّما . المدرسة تحاصرك دائماً . سورها عتيق ، صفوفها مظلمة صغيرة ، دهان أصباغها تقشّر . مصطباتها ضيقة ، سبورتها ممحوّة ، الأولاد والبنات

يتكدسون أربعة أربعة فوقها . الست «كريمة» كانت تطلق تواريخ الحروب كما يلكمني أبي . تبصق على الأرض وتجلس أمامنا فاتحة ساقيها علينا . بطنها منفوخ وهي تنتظر طفلها الأول . كان يتحرك فتصرخ وتمد يديها إلى بطنها : «أريده ولداً والا سأعود إلى بيت أهلي» . تقوم وتتحرّك ببطء ، تكاد تسقط ونحن نمسكها من الذراع ، لا تصل الباب حتى تبدأ القيء . تخرج ولا تعود إلاّ بعد ولادة الصبي الأول .

الست «باهرة» كانت تصرخ علينا وهي تشدِّد على المبتدأ والخبر ، الفعل والفاعل . كنت أضحك كثيراً في درسها وأنا أردِّد وراءها إعراب الجمل . تغضب ويتغيَّر لونها . تمسك المسطرة وتبدأ من أصابعي ، وأنا أعد الدقائق والساعات كي أضع قواعد اللغة العربية في المقلاة ، وأتركها تحترق على النار .

لا أنتهي إلاّ بعد أن آخذ عقابي المرّ : خمسين سطراً من الجمل المفيدة . حين تدخل الست «قدرية» إلى الصف ، كنت أتذكر أمي فوراً ، هي نحيفة مثلها ، أسنانها لا تنسى ، كبيرة بيضاء ، نظيفة على الدوام ، عريضة ، متناسقة ، كأنها لم تأكل بها أبداً . عيناها كبيرتان وجاحظتان جداً ، شعرها طويل بلون الدبس . تضع دائماً «ايشارياً» أبيض فوق رأسها ، يسمونها «الحاجة قدرية» ، حين تبدأ بتعداد الأمراض ، تذكر الوقاية ، العلاج ، الأدوية ، الفيتامينات ، تذكر كل الأمراض ولا تأتي على التدرُّن الرئوي .

دروس الحساب لا أفتحها إلاّ أمام محمود . علّمني شروط

القسمة . كان يعرف الأعداد الزوجية والفردية ، العشرات والمئات ، الآلاف ، الكسور والأعشار . محمود يحب الأرقام ، يقودها دائماً إليه ، يصارعها ويرقص أمامها ، وتنحني له . إذا أخطأت فردوس يصرخ بوجهها ، وإذا غلطت يبدأ معي من جديد . صبور ، صارم ، لا ينسحب من الرقم ولا يعترف إلاّ به . يضحك أمامنا قائلاً :

«هذه الأرقام كأنها تشبه الناس . مرة جلست ليلاً وحسبت من الواحد للعشرة ، وضعت رقماً أمام كل الناس الذين أعرفهم ، ولما صفيت الحساب . عرفت أن هناك أناساً لا يتحوّلون إلى أرقام ، يقع الرقم أمامهم ، يبقون أعشاراً أو كسوراً ، لا يعرفون هذه اللغة ولا يريدون أن يتعلموا . . . بس أنا أحبهم حتى إذا لم يفهموا أي شيء» .

قبل أن يكمل :

«وأنا هل وضعت أمامي رقماً . لولا؟» .

يصمت ويرفع رأسه إليّ . كان وجهه دامياً ، عيناه بلون القهوة المطحونة ، أنفه كبير وجبهته عريضة ، خداه ممتلئتان وشفتاه غليظتان ، وبشرته بلون الروز . ممتلىء لكنه كئيب ، طويل ، سريع الحركة ، عندما يضحك تطلع أسنانه الأمامية نافرة قليلاً إلى أمام : «لا أدري ، هداوي اقرئي زين حتى تنجحي . مرات الدروس سخيفة والمعلمات لا يدرسن الحساب زين ، لكن نحن لا نملك إلاّ هذا الطريق» .

يوم رسبت اختفى محمود عن طريقي . غضبه لم يتبخرّ إلاّ بعد

شهر واحد : «هذه السنة سماح ، أمك سافرت وأبوك تزوّج ، لكن لو نجحت وأنت وسط هذه المصائب كان كل شيء صار غير شكل» .

«وصار كل شيء غير شكل» . وقفت أمام عمتي والجدة وعادل وأطلقت قراري الأول : «أريد أنام وأدرس بغرفة أمي . صرت كبيرة وأريد أن أدرس وحدي ، وأبي لم يعد يأتي إلينا كالسابق» .

صوت عمتي يغلي :

«زين عيني وبعد ، ما هي أوامر الأميرة؟» .

«أريد أن نفتح الراديو شوية ، كل يوم نسمع القرآن ونغلقه ، أريد أن آخذ الراديو معي بالغرفة» . العمة تريد افتراسي : «زين . زين . والله لو كنت ابنتي لقتلتك من أول يوم ولن أدعك تذهبين للمدرسة أو ترين الشارع كل حياتك . . . اللهم لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم» . ضحكت بصوت واطئ . الغرفة المقفلة ستفتح وستهب عليّ حموضة الأب وهناءة الأم . افتح الخزانة وأنظر ، ألمس وأشمّ . . أتجول على السرير الكبير ، أتمرَّغ عليه . نامي هنا ، نامي بالعكس ، تظاهري بالدرس وضعي الروايات السميكة بين الكتب ، اشطحي هناك وحدك ، عطّري نفسك بزلات اللسان وهفوات القلب . . وانتقلي من مشهد إلى آخر . استعيدي أنفاسك وافتحي صندوق العجائب ، انظري إلى الرفوف . كل هذه الكتب ستصير حصتي . بيوت العناكب بيوتي وكل غبار الليالي العصية . إزعقي هنا على العقاد وطه حسين . افتحي اذاعة بغداد واسمعي السلام الملكي . أديري المؤشر على إذاعة صوت العرب وادخلي مع صوت عبد الناصر إلى الجنة .

لم أنم أول ليلة . لم أخف . لا الأشباح تلعثمت وهي في طريقها إليّ ، ولا الحنين كان يضربني ، كنت فقط أفوز بأمي وحدي وأتقدم من أبي . أمشي لعادل ولا أهرب من جدتي . أما عمتي فقد كانت تشبه الدروس التي آخذها في المدرسة . يوم نطلع إلى المدرسة يكون عادل بانتظاري في أول الممر حزيناً : «لم أنم جيداً . كل شوية أجلس وأرى مكانك خالياً . هدى ماذا عملت وحدك بالغرفة؟ هل خفت؟» .

أجر ساقي صوب باحة الجامع ، أجلس على السور الحجري تحت شجرة «النبك» الباسقة ، أنظر إلى السماء ، أهرب من السيدة رسمية .

- ١٠ -

المسجد نفض يده عن أوقات النساء . فدخل الرجال أفواجاً . الأجداد ، الأعمام ، الأولاد ، الذكور ، الفحول ، والزلم . الرجال الذين تعرفين ، والرجال المجهولون . تابوت أمك لم يرفعه ولا رجل ، تثاءبوا عليه في حلب ، سعلوا ، هبط ليل الغفلة وقسمت عائدات إقبال على الجميع بدون باق .

السيد جميل لم يفتح البرقية ، نصب طاولته وأضاف قدحاً آخر . دار حول بطن امرأته منتظراً ابنه الثالث . وحده منير ، دخل منتصراً . مدّ ساقاً للداخل وأدار ظهره للجميع .

يدخلون . . أصحاب البطون المكوّرة ، الكروش المجعّدة والصدور التي تنتظر أمتاراً من العفو والعافية . دعواتهم تتطاير مثل طيارات عادل الورقية في بهو المسجد . يلمعون مثل أحجار

الكرستال. نعالهم مصبوغة، أحذيتهم لامعة، عباءاتهم مكوية، شعورهم مصفّفة، شواربهم معطرة، أغطية رؤوسهم نظيفة، أحزمتهم العريضة تنزل تحت الخصر، الزبون واللباس الطويل هفهافان، البدلات ذهبت وعادت من المكوى منتظرة هذا اليوم.

الرجال في الليل لا يشبهون رجال النهار. أولئك وهؤلاء جاؤوا من الأحواش والمقاهي والبارات. نزعوا فتيل الضغينة واللوم. الجميع ينتظر الجميع. يتصافحون، يربتون على ظهور بعضهم بعضاً، يقفون، يلصقون الجبهات المجعدة، العريضة الضيّقة، الشامتة، والزاهدة على الشباك. أصواتهم تخطو بين أعمدته الفضية، يركعون خاشعين.

لم تري رجلاً راكعاً من قبل. أبوك لم يصل، عادل تدرَّب طويلاً ونسي الحركة الأولى. عمتك كانت تركع أمام نفسها فقط. أمك ظلت تصلي وحدها، وأنت لم تري أي شيء من هؤلاء.

يسجدون ويقومون. الإيماءات، الصلوات، الحركات. وكما في البعيد، كنت تدورين مع اللاتي يصلين، وكما في القريب، الرجال أمامك وأنت وراءهم. يديرون القامات والرؤوس مسلّمين على الله والرسول ومن جاوره في الحضرة الشريفة «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

سورة الفاتحة تختم الألسنة وتقرأ بصوت واحد خفيض، ترفع الراحات إلى أعلى، يمسحون الوجوه ويتحرَّكون صفاً وراء صف، منتظرين صوت الحافظ «مهدي» وهو يرتل آيات من الذكر الحكيم.

تطلع السبح السوداء والصفراء وتدور بين الأيدي والأصابع .

البعض يتكىء على الحائط ، والآخر يتكىء على حوضه . الحضرة دخلت في الصمت . يسعلون على مهل ، يحركون الرأس ، يعدلون الظهر ، يتنفسون ببطء ، وينصتون لصوت القارئ يطلع من شقوق الزوايا ، مخترقاً الجدران . أجود معه ، أمشي ، أسمعه في الباحة الواسعة بطابوقها المكسر . أقف وسطها . الأطفال والنساء يلملمن أنفسهن وعباءاتهن ويطلعن من الباب الخلفي للجامع .

مسجد أبي حنيفة ، جامع المشاجرات الأولى ، واغراء اللعب تحت شجرة النبك العالية . جلسنا تحتها يوماً ، أولاد وبنات الطرف ، ضحكنا ، طارد بعضنا بعضاً . أسقطنا «النبك» اليابس ، الحامض ، هربنا الحبات الكبيرة ، المدهنة . لعبنا «الختيلة» حولها ، كنا نخبىء الرأس والأطراف ، ويمسك بعضنا بعضاً من الأذيال والضفائر والدشاديش . نطوق جذعها بأذرعنا ، محمود يطوي نصفها ، وعليّ أن أكمل الآخر ، حتى تقبض الشجرة على صدرينا . نهزّها ورؤوس الأصابع تتلامس وتهتزّ .

ننتظر موسمها القصير . نصطفّ جميعاً تحتها ، يصعد محمود على الراحات ، يتعربش الأغصان الكثيفة ، يهز ، ويهز ، أراه في الأعلى وهو ينظر إليّ وحدي . وفردوس تصرخ : «محمود . . . . دير بالك زين» .

تلتفت صوبي : «هذا كله من أجلك حتى تأكلي الثمر الناضج» .

أضحك ولا أعبأ بكلامها . الكل يلم الحبات من على الأرض .

محمود يعبىء جيوبه بالثمر الناضج ، الكبير ، الريان ، الذي تشقّق جلده من الامتلاء . ينزل ولا يرى إلاّ ذراعي بانتظاره . نفتح أذيالنا ونحسب ، نأكل ، نبلع النوى . . نتلمظ رائحة الثمار بين أسناننا وبلاعيمنا ولا نشبع .

هنا خطونا أولى خطواتنا المتردّدة ، المتلعثمة ، حتى ثقلت أقدامنا قليلاً . هنا فتحنا أجفاننا على القباب العالية . أكلنا الخبز الحارّ ، و«التمرية» المزروعة بالسمسم والجوز . حملنا صحون «الهريسة» وطناجر الأطعمة البائتة وأطباقاً من «الزردة» والحليب .

كانت جدتي ترسلني إلى هنا في الأعياد . أحمل «العلاكة» وأدور على الرجال والنساء والمسنين المكومين بين الزوايا الدكات الحجرية للمسجد ، يرفعون رؤوسهم إليّ : «اللّه يعافي أم جميل ويبارك برزقها ، هي لا تنسانا أبداً» .

يأخذوننا معاً . بنات ناهدة ، «عفاف» و «انصاف» . تقفان وجهاً لوجه ، لا تتحركان ، لا ترمشان ، ولا تمدان الأيدي . هن العاقلات ، النظيفات ، المؤدّبات . لا نبتسم ، لا نحكي ، ننظر بكل عيوننا . بغتة ، تركضان وراء أمهما .

أرقبهما وهما تدوران حول الضريح .

كلهن يجئن هنا ،و بيت الجد الكبير ، عجائز المحلة ، نساء الشوراع الأخرى . ندور ، وندور ثم نقف أمام شباكه ، وصوت عمتي ورائي : «أدعي وأطلبي مرادك ، دعوة أبي حنيفة لا تخطىء أبداً» تدفعني أمامها كما لو أنني سأذهب إلى المدرسة . تحاصرني ، أسمع

حركة عباءتها وتنفسها السريع اللاهث . تنتظر عضلة لساني وهي تلفني تحت إبطها ، رائحتها حامضة من العرق الذي ينزّ من رقبتها وبطنها :

«ها . اخرست؟ بس هنا عيونك تنكسر ، ها دعوت لو بعد؟» .

«أنت ادعي لي»

«ولسانك ما به؟ الله يقطعه ويخلصنا منه ، أنا لا أدعو لأحد . كل واحد يدعو لروحه» .

«أنا لا أعرف»

«قولي الله يهديني على طريق الخير ، ويرزق أبي ويعافي أمي وأخي وجدتي ويزوج عمتي بسرعة حتى أخلص منك ومن ذاك البيت الأسود» .

«ليش أنت ما تدعين لنا جميعاً؟»

«الله أكبر عليك . حتى بهذه الأرض الطاهرة تعاندين؟ أنت من أية طينة جئت؟» «زين أنا أدعو وحدي . لا أريد أحداً قربي يسمع ماذا أقول» . تقرصني من زندي وتبتعد عني . لا أعرف ماذا يقال أمام الضريح . جدتي تجلس بعيداً وتسبِّح . نظراتها غائبة عن كل ما حولها .

لا تلتفت ، ولا تتحدَّث مع أحد ، تروح ، تسافر ، لا يظهر من جسمها إلاَّ مثلث الوجه الأبيض ، وزجاج نظارتها يلمع . أمي تجلس بجانبها دائماً ، دارت ، صلّت ، وطلبت المراد . بكت بصمت ثم

جلست لا تنتظر أي شيء . عادل تقرفص بين الاثنين ينظر إلى الجميع ولا يتحرّك .

أفلت من عمتي وصوتها ورائي ، أطلع إلى الباحة .

هذه القباب العالية «فالجهة الشرقية يقع فيها الباب الرئيسي للجامع ، وهو يشكل مستطيلاً من الطابوق الأصفر المنجور تحيط به النقوش التي تقشر لونها الأزرق . وبجانب الباب من الجهة الشمالية ترتفع الساعة ذات الأوجه الأربعة . وجه غروبي وثلاثة زوالية ، وقد غلف بالألمنيوم الأصفر ، وهي وحيدة في شكلها ورونقها . والجامع له قبتان ومنارة من الجهة الشرقية ، إحداهما فوق حرم المسجد ، وثانيتهما فوق ضريح أبي حنيفة عليه الرحمة . ولقد بدأ بتجديد السياج الخارجي بالطابوق الأصفر مطعماً بالكاشي الكربلائي الأزرق وكتبت عليه بعض أسماء اللّه الحسنى» أرفع رأسي إلى المنارة الزرقاء . أسمع صوت اصطفاق أجنحة «الفخاتي» والحمام ، بلونيه الرمادي والأبيض . تحمل عيدان الأعشاش وتطير عالياً ، تحطّ على القمة وتنام هناك .

ستوري كان يربي طيوراً كهذه ، كنا نسميه ستوري «المطيرجي» . نسرق له الحبوب ، نخبىء له الخبز اليابس وفتات الصحون ، نصعد إلى سطحهم العالي . ننظف الأعشاش من «الضروك» ، نرمي لهم الحب ، ننقع الفتات اليابس ، ونرشّه على الأرض .

عادل كان يحب طيور ستوري . يغافلنا ويذهب إلى هناك . يقفان معاً ينظران إلى الطيور وهي تذهب بعيداً :

«ستوري أنظر إليها ، لقد طارت بعيداً جداً . أخاف ألاَّ تعود ثانية» .

«لا ، هي تعرف دربها أحسن منك ومني»

«زين أنت عندك طيور أحسن مني ، أبي لا يوافق أن أربّي طيوراً ، يقول عندك طيارات الورق مثل الطيور طيّرها ودع الطيور بالسماء أحسن» .

«أنا لا أسجنها . ألا ترى القفص فارغاً والطيور بالسماء . أنا أحب اللعب معها فقط . حين مات أبي بدأت أربيها» .

«أي تمام بس أخاف تضيع طريقها ولا ترجع مثل أمي»

أمشي ، أصعد الدرجات . الهواء جاف خانق ، أوراق الشجر لا تتحرّك . هجم البق والحشرات . جاء من الشط القريب والشجر الكثيف . يطنّ ، يتصايح ، يقرصني ، يخز وجهي ، أطرافي ، أضربه وأصطاد بعضه ، أقفز وراءه وهو يطير إلى حزمة الأضوية المشعة بين زوايا الجامع . أحكُّ جلدي ، ذراعي ، ساقي . أركض بين الزوايا ، أهزّ أوراق الشجرة ، أجمعها ، أفركها بيدي ، وأنتظر الرغوة من عروقها اليابسة .

لم يلمحني أحد . إذا جاءت رسمية ، أو طلع الرجال الذين أعرف ، فالظلام كان يغطي تلك البيوت والأزقّة المسدودة . ليل رمضان أصفر ، مطعون . صوت الشاحنات الكبيرة يرج الشارع . تنزل خراف العيد ، وبحة أصواتهم تذكرني بصوت عمتي . يتدافعون ، يدورون حول بعضهم بعضاً منتظرين الذبح .

جفوني مقرّحة ، شعري مبعثر ، تعال محمود ، لقد حللت لك

ضفائري . تريده محلولاً وأريده طائراً يفرّ من الحواش ، من الأخوة ، تعالوا يا صبيان المحلة سأتبعكم من الشط إلى المقبرة . من المدرسة إلى الحدائق العامة . أفردوا الأكف وبلّلوا الراحات بدموعي . أشعلوا مصابيح المساجد ، البيوت ، المقاهي ، السراي ، والبلاط .

طلع الرجال . مشوا ، تحركوا . كأنهم طيور راعشة خفيفة . يروحون للحواش القريبة ، يمرون بمقهى «النعمان» يطلبون الشاي الثقيل ، ينصتون لفرقعة الفحم وهو يحترق في النراجيل الوسخة .

«الطاولي» يدور بين الأيادي . الصراخ بين اللاعبين يتعالى . دخان الطلبة الذين يدرسون في آخر المقهى . سعال الرجال المتقاعدين تتداخل بأسماء عبد الناصر ونوري السعيد ، صالح جبر والوصي ، الملك الجميل الصغير والانكليز ، المظاهرات ، المناشير ، الحكومة وإذاعة صوت العرب . كلها تنتقل بين الألسن والشفاه ، بطيئة ، هامسة ، خائفة . دخان السجاير والفحم يجرح الجفون . يتصايحون يثرثرون ويسكتون بانتظار صحون الكباب وبيض الغنم والأكباد المشكوكة بأسياخ عريضة ، يأكلون ، يتمازحون ، ويطلعون قبل أذان السحور .

بين حوشنا والمسجد أقدام ، وبين المقهى والحواش الباقية أمتار . إذا طلع الرجال للمقهى ، طلعت النسوة لـ «القبولات» والطرقات البعيدة . المتزوجات ، الأرامل والآنسات اللاتي ينتظرن ظهراً قوياً ، وسقفاً لا ينزل ماء من شقوقه ، ورجلاً وفياً . يداً بيد ، ثلاث ، أربع يهبطن على مهل ، يمشين في الأزقة الخالية ، ينزلن إلى الشوارع

الأخرى ، يصلن السدّة الترابية ، وأضواء البيوت العالية تلمع مثل أحجار الماس . العباءات تلف كل سنتيم من أبدانهن ، «البوشي» يسيّج وجوههن . لا يسعلن ، لا يتمخطن ولا يتنهّدن .

تبدأ اللعبة والاتفاق عليها من ليل البارحة . النساء اللاتي أعرف كن يجلبن نذورهن من الطريق العام . يرقبن ذراع الميزان وكيف يميل بين أفواه الرجال العابرين أمامهن . يمشين وراءهم بهدوء يصل حدود الاختناق ، ينتظرن زلة لسان أول الرجال لتفتح لهن درب النجاة والفرج . فإذا قال أحدهم لصاحبه : «اليوم الله فتح عليّ الرزق ، بعت وربحت بقدر تعب أسبوع . عيني الدنيا بعدها بخير» .

وإذا باح الآخر بسرّه قائلاً : «أخ من مرتي لا تشبع من الذهب» .أفتح عيوني من الصبح على طلباتها . وحين ننام ليلاً تأخذ قبل النوم كل رزق البارحة» وإذا دخل الحوار في السياسة كانت تتعثّر ألفاظه بين الشفاه : «أي المناشير ابن أختي . أمه مثل المجنونة» .

كل الكلام يحفظ عن ظهر قلب . يحلّل ويفسر ، يجمعن من داخله الاحتمالات والوساوس ، هذا المجهول : الرجل ، كل الخيوط تتحرك حوله بالضمير المتكلم ، أو بسلوك الغائب . يتبعن كوكبه إذا طلعت الشمس أو غاب الهلال . يبذرن الأحشاء أمامه ويتصلن به من وراء الحجرات والعباءات .

هكذا عملت الخالات والعمات : فريدة ، نجية ، بهيجة ، رسمية ، أم محمود ، زبيدة ، وأم ستوري . كلهن تخيلن النديم الإبليسي يرمي عليهن الاسم ، اللقب ، والأمن .

يخبئن السهام الصدئة في القلوب وهن عائدات للزقاق الرطب ، الدكة المبقعة ، الأسرّة الباردة ، والأطفال المتذمّرين على الدوام .

صوت رسمية بين الأصوات يعلو :

«أنا رأيتها نائمة بالجامع مع النسوان أين تذهب بنت في عمرها بهذا الليل ؟» أصوات من أحب وهم يأتون صوبي .

وقفوا قبالتي ، أطاردهم ، يركضون ورائي . . أجري . هاشم «حوله» يمسكني من الساقين بدل الضفائر . لا أرى الوجوه تماماً ، وبقايا من أشعة مريضة آتية من واجهات الدكاكين والمحلات . فردوس تجر ساقاً وتدفع الأخرى ، صوتها خشن فجأة . : «هداوي قفي شوية ، بس أقول لك شيئاً واحداً . زين تعالي إلى دارنا» .

محمود ونزار يدخلاني بين ذراعيهما . عادل واقف لا يتحرك . وقف الجميع على رأسي ، نزلنا إلى الأرض ، ألبط ، ألهث ، عادل يتكوَّم في حضني أخيراً ، ونعيط بصوت واحد «يمه . يمه .» .

يجرونني ، نسحب أقدامنا . فردوس تأخذ ذراعي وعادل يقبض الأخرى .

حوشنا محشوّ بالوجوه ذاتها . الكراسي طلعت للسطح العالي . الحوش كله صف بالسجاد والفرش السميكة . لا شمعة تلتهب لا مخبأ نخبىء به سعال اقبال . الصواني اختفت ، الكاسات رفعت . عيدان البخور نشرت . رائحة جديدة تذكرني بطيور ستوري .

الخالات والعمات ، النسوة ، كل من تعرفين توزعن في الممرات ،

في المطبخ . جلسن على درجات السلم . العروس نزعت (الدواغ) وبقيت بثوب العرس . جلست وفتحت ساقيها وبدأت اللطم . الجدة أسندت ظهرها على الحائط بيدها القرآن . أم ستوري تقف وسط الحوش وبين الجميع مثل طائر مذبوح ، عباءتها تحزَّمت بها على الخاصرة ، رأسها مفرع ، الفوطة سقطت ، شعرها اختلط به اللون الأحمر المغبر والأسود المصفر . . رائحة الحناء و «الوسمة» السوداء تفوح وتختلط بالعرق والزفر . شعرها محلول ، منشور ينزل إلى الكتفين ويغطي الوجه والعينين . وهي تندب ، تعدّد وتضرب على صدرها :

«يحفار الكبر سويلى سماية»

«بيني وبين أمي حجاية»

«واحجليج اشسوون ويايه»

« أمي يالحماية كفاية»

صوتها يهز الحوش . الخالات وقفن في الوسط ، صدورهن مفتوحة ، شعورهن محلولة ، أصواتهن تشق السماء وهن يرددن وراء أم ستوري . الأيادي تضرب الصدر الوجه ، الرأس ، الخدود ، الجباه ، وتنزل بحركة واحدة . هبوطاً وصعوداً كأنهن مربوطات بخيوط لا ترى . الحلقة تكبر ، يدخلوننا في الوسط عادل وأنا . ننزل إلى الأرض . ينزلن أمامنا . يلطمن ، يصرخن بوجهينا . أم محمود تصير قبالتي . الخالة لائقة لا تبكي ، تضرب وجهها ، ونهداها الكبيران يهبطان ويصعدان . حوضها ينبعج أمامي . كل الواقفات

يدرن أمام بعضهن بعضاً ويلطمن وجهاً لوجه . الخالة نجية يخافون عليها من انقطاع النفس . تحرّك رأسها ويدها لا تصل إلى صدرها المفتوح . نسوان الطرف البعيدات اصطففن بين الممرات يبكين ويغطين رؤوسهن بالعباءات . أم ستوري تجلد الجميع . لا تبكي ، لكنها تقف وتسحبنا إلى صوتها الذي تغيَّر ، تبدَّل ، طفح به الحزن فاشتد النحيب وهي تصرخ :

«لا تحسبيني ناسيتكم»

«دفتر بكلبي وكاتبتكم»

«وغصبنا عليّ مفاركتكم»

الضلوع تتكسّر ، الأصوات تشهق مرة واحدة . والجميع يردد : «يبو . . يبو» . الجدة لا تطلق صوتاً . تقرأ بصوت خافض وكأنها تقف في صحراء ترى أمي أمامها . تورق الصفحات بهدوء . وجهها ازداد بياضاً . خلف نظارتها كانت دموع تؤجل هبوبها . يدها لا ترتجف ، صدرها يرتفع وينخفض . ربو صدرها يعاودها في الأعراس والمآتم . تسعل وتختنق . يجلبن لها الماء والدواء . تهدأ ويطلع صوتها وكأنها تخاطب نفسها : «يا رب أنت العارف وأنت الساتر . يا إلهي خذها من قلبي مثل ما أخذتها من دربي . كل يوم تمتحني يا إلهي ، اللهم لا اعتراض على حكمك . الله أكبر ، صار لها أسبوع من اندفنت . جمولي يعرف ولا يقول . ليش . ليش؟ عينى إقبال هذا أيضاً إمتحان . الله على طول يمتحن عبيده . ارتاحي هناك بجنان النعيم . قرأت لك أربعين مرة سورة ياسين سوف تجديها هناك بالجنة ترفع عنك عذاب

الدنيا الوسخة . . ألف رحمة على روحك» . تغلق القرآن ، تبوسه .
تقوم على مهل ، لا ترى أحداً . العياط يشق الآذان .

تدفع القامات ، تلمسنا . تسحبنا ، تدفعنا أمامها . لا أحد يقف في طريقها . نتعثر بالعباءات والأحذية . تصعد وتدفعنا إلى السطح . تفتح الباب وتقف في وجه السماء . تمشي ونحن بجوارها . تمسكنا ونختض من الأطراف حتى القدمين . تنزع نظارتها ، تضعها على السور الطيني . ترفع رأسها إلينا ، تجرنا بلا كلام . تأخذنا إلى صدرها ، تحضننا ، ندفن رأسينا ببطنها ونشهق وصوتها يغطي السماء كلها : «نبكي هنا وأنا معكم . ابكوا على أمكم الغالية . خلصوا الدموع هنا . ولما ننزل لا أريد أن أرى بعيونكم ولا دمعة . هذه الدنيا وحالها . نجيء ونروح . ويأتي غيرنا ويذهبون . لم يبق أحد . حتى الرسول حبيب الله أخذه قربه . لا يبقى إلا صاحب الزمان» .

تأخذ أيدينا وتجلسنا أمامها تطلع دموعها من الروح وهي تعدِّد :

«شبيدي على السدت الباب»

«وشمرت مفاتيحها على العتاب»

«وراحت ولا ردت جواب» .

- ١١ -

«حمامتي وين رحت» .

أصوات الحمام النائحَ على قباب الجوامع ورؤوس الأشجار الباسقة البعيدة حيثما التفت . بعيداً ، مقلوباً ، ينقر سمعي وأنا أردِّد معه . وحيدين كنا ، لما يستوحش يقف على سياجات السطوح ، بين حوشنا وحوش محمود . يحرك منقارة بإيقاع ناي ليلي . يدمدم إذا عرف أنه ما زال وحيداً . أقوّس ظهري ، أرفع بطني أحرّك رأسي ، يديّ ، ثم أصابعي ونطلق صياحنا معاً .

حين يسمع الصوت تبدأ حركة الأجنحة القصيرة المضطربة وهي تخبط نفسها ويترقرق الأسى في صوت هديلها المتعاقب ، فيئن وأبلع دمعي .

جدتي تسعل وهي تتحرّك في فراشها . تقوم ، تمشي على السطح .

تنظر إلى أسرّتنا ، ترفع رأسها إلى السماء . تتمتم ، تسعل سعالاً رطباً متقطعاً . تدور أمامي ، لا تراني . بعد عدة أنفاس يزداد سعالها فترمي السيجارة تحت قدميها .

كل أشهر الصيف الطويلة الساخنة كنا نصعد أنا وعادل إلى هنا . نحمل الفرش السميكة من الغرفة الصغيرة ، نهوي الشراشف والمخاديد ، نكنس الأرض ثم نبخّها بالماء ، يخمد التراب ويطلع بخار أصفر شاحب إلى أعلى يتركنا نعطس طويلاً . نتحرّك ، نلعب ، نلوي السواعد ، نطوي الأصابع ، نضع الكراسي القديمة والطابوق المكسّر ونقف عليه ، لنرى فراغات البيوت ، سقوف الدور ، أعشاش الحمام ، مداخن الحمّامات ، وألوان السيارات والشاحنات وهي تمر من بعيد .

عادل يركب الأسرّة الحديدية ، ينطّ على هذه ويركض حول تلك . يصوِّب وجهه إلى السماء . يقفز أمامي وبيده الوسائد . يرمي واحدة بعد الأخرى على رأسي ويصرخ : «أنظري إلى السماء . لونها يشبه وجه جدتي . أنا لا أحب الشتاء . السقف ينزل الماء . الطين لا يدعنا نلعب بالشارع ، والبرد يمرض جدتي . أنظري إلى تلك الطيور ، حين تطير عالياً يمكن تريد منا أن ننتظرها . هدى ألا تحبين الطيور؟» .

جدّتي تصير فوق رأسي . أنظر في عينيها ولا تراني في الظلام : ألمسها من يدها ، تلمسني : «هدى متى استيقظت؟»

«كلما تتحركين أسمعك ، لم أنم مثلك» .

تجلس على حافة سريري . تصعد يدها إلى رأسي ووجهي .

أبوسها ، أحضن يدها : «اللّه يصبّرنا كلنا . دموعي نشفت والقهر سوف يعميني . اليوم وراءنا سفر . بعد قليل نذهب للمقبرة وبعدين نسافر إلى كربلاء» .

«وليش كربلاء» .

«اليوم عيد . . نسيت؟ . نسافر نرى الغائبين ، اللهم لا اعتراض على أمرك» . تدخل نوبة بكاء بطيء ، أدخل معها . وتعود بصوت مخنوق : «إقبال راحت ، وجميل نسينا . نسي أمه وأخته وأولاده . اللّه كريم» تمسح دموعها وتواصل : «أي ، نسافر أريد أبكي بحضرة « أبي الشهداء» . ندعو منه أن يحنّن قلب جميل ويعافيه وأطلب منه الصبر . واذا بقي وقت نزور النجف» . تقوم واقفة وهي تردّد : «يا إلهي ثبّت ايماني و لاتدعني أشتكي كثيراً . أنت والينا وأنت ناصرنا . لا تدعني أحتاج أحداً . لا جميل ولا منير . يا رب لا تدعني أمد يدي لغيرك ، خذني قبل ما يذهب حيلى ونظري» . أقوم وأقف أمامها . تأخذني بين ذراعيها ، تمسد شعري : «ومن سيسافر معنا؟» .

«كلنا» .

«حتى عمي منير» .

«منير غاب . لا ندري أية أرض تحمله . لا سأل ولا مرّ . ولا أهتم بكلام الناس على ابنة عمه» .

تتركني وتمشي . أراها مثل ملاك نظيف ، مريض ، ومحاصر .

الفجر بدأ يشق جلد السماء ، إذا قطع لسان الحمام ، تجيء الغربان مفتوحة العينين والساقين . كانت جدتي تردّد دائماً ونحن نذهب

للنوم بالسطح : «إذا وقف الغراب فوق الرأس وصاح بصوت ملتو فهذا فأل أسود» .

كانت سماؤنا مقراً لكل الغربان . تسكن الفضاء القريب من بيوتنا . وتتبارى في النعيق . رؤوسها تنزل أمامي ، تكسر أجنحتها فوق رأسي إلى حدّ أن كان بمقدوري أن أسمع نبضها . تطلق صياحها وترتفع بأكملها عالياً ، فأدخل في الرعدة . الغربان لم تأت لمّا راحت إقبال . الحمام وحده تهدل صوته وطلع من أعشاشه . فغنى لنا أول ما فتحنا أجفاننا : «أمي يا حلوة اقبال يا سلوى» .

«وحمامتي وين صرت»

فريدة تستيقظ عابسة ، صوتها غليظ وهي تدمدم . لا تصبّح على أحد . عادل أسحبه من فراشه . أمسك يده وننزل السلم وهو ما زال متناوماً . نرش الماء على وجهينا . نرتدي ملابسنا القديمة . الدنيا ما زالت مظلمة . العائلة تطلع من الحوش . يمسكني عادل من يدي وأفلت منه . نساء بيت الجد الكبير ينظرن في أول الطرف . رياح العباءات التي جاءت من المصبغة حديثاً تدخل في أنوفنا . أمهات محمود ، ستوري ، هاشم ، وإيمان ، صمت يخرس الألسنة . الفجر البغدادي يشبه رغوة الصابون في طشت «أم ستوري» . سحب كبيرة كأنها ترتدي عباءات رمادية وسوداء .

شارع الامام الأعظم هادىء . المقاهي مقفلة . الدروب كتومة الزبالة تخطفني للتفرج . لا أرى إلاّ أكياساً مبعثرة أمام دكات البيوت والدكاكين المغلقة . كلاب نحيلة مسحورة وهي تقف أمام الأبخرة

التي تتصاعد من الأكياس . هررة كبيرة تتعارك ، تلحس ، وتنشر كل ذلك المزيج المخاطي بين لعابها وأنيابها وتسحب البقايا إلى الزوايا . الجدّة تسعل بحياء . الربو يذهب ويعود بإيقاع يشبه رقاص ساعة لا تؤخِّر ولا تقدِّم .

أضواء الشوراع الخاسفة تدع الخيالات تكبر وتتطاول أمامنا حتى يكتم عادل صرخته في وجهي وهو يركض ورائي : «أنت ساكتة مثلهم . ألا تخافين من الظلمة؟ قولي أي شيء» .

«امشِ واسكت» .

«ومن سنرى هناك؟» .

« لا أحد» .

«هذه أول مرة أجيء معكم . كل الذي يذهبون للمقبرة يسكتون؟ زين ، وإذا طلع علينا الجني؟» .

«كلنا معك لا تخف» .

«أنت تحدثي وأنا سأسكت»

حيطانَ الجامع مكسوة ببعض الواقفين . نساء ورجال يمدّون الأيدي ويفتحون الأذيال . أصواتهم وهي تطلق الدعوات ما زالت متناومة . هواء خفيف بارد يمسح رأسي يمس منافذ لحمي ، يدخل مع اختضاض أصابع عادل وهي تقبض على كفي :

«تتذكرين حين أخذتني للمقبرة . كنا صغاراً ونلعب بين القبور . كانت الشمس قوية والنَاس حولنا ، وأنا أضحك مع نفسي وأقول . هدى ستخاف وتعيدني للبيت . اللّه ، يا ريت نظل نلعب أنت وأنا . لا

نأكل ولا ننام ، بس نلعب . أقبل حتيا إذا خوفتني . هدى أقول لك الصدق ولا تزعلي . ذلك الوقت لم أخفَ ، كنت أريد أن أرى خوفك . هدى ألا تخافين؟» .

«اليوم انفتح لسانك كله . بعد قليل ستطلع الشمس ويزول الخوف» .

«لما أحدنا يسكت يرجع الخوف . هو الذي يموت يسكت؟» يزداد اختضاضه . يجرّني من يدي . نقف معاً . أحضنه لا يحضنني . كفه ما زالت تقبض على يدي ، بدنه يرتجف ، والدموع لا تطلع .

رجال طلعوا من المفارق والدروب يتمخطون ويبصقون على الأرض وهم يمشون .

أسمع سعال الجميع ، كأنهم يدرِّبون حبالهم الصوتية قبل الدخول .

ومن أول شبر في المقبرة نسمع آيات من الذكر الحكيم . جلس القراء على كراسي الخيزران ، توزعوا بين بعض الشواهد . قبور أصحاب الشوارع الأخرى كانوا يجلبون السادة القراء . أصحاب الأزقة المسدودة يعددون لأنفسهم ويبكون .

نسوان طرفنا أمامي ، فتحن الأجفان ، حضرن العويل وطرن أمام الكتابات التي غطاها المطر والتراب والنسيان . كل امرأة تبرك وتنوح أمام القبر الواطئ اليابس ، المغطى . الصبية يتحلّقون حول القبور ، ينظرون للأمهات الباكيات ويبكون معاً .

العباءات تفتح عن أبدان شاسعة ، معروقة . الآهات تخترق الرقبة

وتطلع من الصدر . التربة تتفتت بين الأصابع ، بيوت النمل الفارسي الكبير والصغير ، الأسود والأحمر تفتح مغاراتها وتطلع بين الراحات والأصابع .

حرب النحيب بدأت .

الجدة يتجمّع صوتها قطرة وراء قطرة . وهي تدور ثم تفترش الأرض . دموعها تتلألأ مثل نجوم خزنت في مغارة . تقرأ ولا نسمع إلاّ خواتم الكلمات . ثم تتفتح الدموع . هادئة ، منتظمة . تبكي حتى تغطي دموعها مساحة المقبرة كلها . تمر على حلب ومكة ، يجيء اسم الرسول على لسانها وكأنها تغتسل باسمه . تذوق ألمها تشعل له البخور وتوزّعه على الجميع بالتساوي . لا تنسانا ونحن نقف حولها :

«اقرأوا الفاتحة . هدى انفخيها على روح أمك . عادل ابني لا تغلط وأنت تقرأها ، أرسلوها لروحها الطاهرة . الروح تسمع وتحس وتزعل أيضاً ، هنا سندفن كلنا» .

أمام قبر الجد «أحمد المعروف» تنثني وتهمهم وتقرأ . لا أحد يجاورها في اشعاعها . تنظر إلى الأرض وكأنها تريد أن تفتحها بأظافرها . نرى رجفة الأصابع ، خفقة الكف وعويل مجهول يغادر صدرها ويذهب مع حركة الأمواج في شط العرب . دخل صوتها شقوق الصخور واقتلع الاشنات اللاصقة في جوف الشط . مرت على المراكب الصغيرة . لُدغت وهي تتعقَّب السفن الكبيرة . عبرت عذوق النخيل . كانت تتبادل النظر مع السعف الفاره . . هناك كانت تتكوَّم يومياً بين تراب البساتين المكتظة بالأشجار ، مبحوحة ،

محلولة . تشتم النحس والغربان وتنتظر بركة الماء وهو يحادثها . تصلي الفجر أمام الشاطىء . تشفط الملح بلسانها وترتعد في الليل . تدخن خمسين سيجارة وتعسكر على الجرف ولا تقبل أحداً يحاذيها . وحدها كانت تفتح خط الرمل وتنتظر رباط الرجل ، عله يصعد إلى السطح . أو تطلع بين يدها خاتم الزواج .

لما غرق مركب الجد في شط العرب وازدحم الشط بأسماء الرجال الستة المغامرين . الموظفين : مفتش القائمقامية السيد أحمد المعروف ، مفوض الشرطة ، مدير الخزنة ، طبيب الناحية وحارسان . ارتخت عضلاتهم في حركة المد ، ثقلوا ، انغرسوا بين أرجل السراطين وفكوك الأسماك المكهربة . أخذهم سرير الماء فناموا هناك إلى الأبد .

أمام الشاطىء نصبت خيمة كبيرة وقالت : هنا سنعمل العزاء سبعة أيام . هنا سننتظر لحم الرجال . تحزّمت بعباءتها ومدت سجادتها على موج الرمل ، إذا راح المد تفتح ذراعيها وتشد نفسها ، وتخوض للداخل حين يحل الجزر . تمشي ، تمسح نظارتها من رذاذ الماء وتنزل بأقدامها البيضاء النحيلة . على بطنها شدت حزام الزوج ، وفي يدها فانوس تلتهب فتيلته كلما هب الهواء ليلاً وهي تنوح :

«جئتك محزمة بحزامك أبو جميل ، أريد أودعك هنا ، طالت سفرتك هذه المرة متى ستعود؟» .

تفتح حلقات الماء وتنادي : «هذا حزامك أبو جميل , تعال انظر إليّ ، أول مرة أطلع مفرعة . لا تتأخر أبو جميل . يا ويلي على جميل

وفريدة . يا ويلي على وفيقة من بعدك» . لا تتعب ، لا تضجر . تتعقب الماء وتنتظر علامة الغائب . سترة «الجوخ» المقلمة ، أو السروال الرمادي . تنتظر حمولة العمر كله تطلع أمامها وهي ترى من بعيد شيئاً مدوراً ، منبعجاً ، يطفو ويغرق . يغيب ويحضر . لا هو بني آدم ولا يشبه الحيوان . لونه يتردد بين الأسود والبنفسجي . غامض ويطفو على مهل .

I

تصرخ وتسكت . تزحف على مهل وتعول . الماء يغمرها . تتلاطم وتبسط راحتيها عليه . كل ما حولها يرفرف ، طيور الماء ، مراكب الصيادين وشباكهم العتيقة . وجوه الناس في الناحية طلعت كلها ووقفت أمام الشاطىء . صوت جميل لا يسمع . فريدة تبكي تريد أمها ، وهي تتخبّط . لا أحد يتدخّل معها . لا أحد يخاف عليها . كانوا يبسطون عليها الدعوات ولا يجرؤون على غزو مملكتها المائية . يرمونها بالدعوات ويبسطون عليها الصلوات . وهي تغيب وتطلع . تقوم وتمسك الماء بيدها يختلط الدمع بالرمل وخيوط «الفينة» السوداء المبرومة القصيرة المجعدة تقبض عليها . تجرُّها ، تسحبها . ترتخي العضلات قليلاً ، ويدن الجدة يحمل بين الأذرع والسواعد . جاء الرجال والنساء . دخلوا حضن الماء وحضنوها . رفعوها إلى أعلى والماء يبلّل الجباه ينزل مثل «ناقوط» جديد . هي مزرقة ، مصفرة مخضوضة ، لكنها مشعة . تسعل وتمسح وجهها بالقماشة السوداء . تبوسها ، تشمها ، تنام وهي بين يديها . في الصباح تأخذها إلى سطح الحوش . تضعها في حلق الشمس . تنشرها ، تفرشها ،

تقلب بطانتها ، تمشّط مخملها الأسود الموسخ المطيّن . تنفض ذرات الرمل من على نسيجها وتطيّره في الهواء أمامها . ظلت تحادثها وتنادي عليها . رفعتها على التابوت الفارغ وحدها ومشوا بها في أزقة «علي الغربي» القذرة الصغيرة . داروا بها الأحياء القريبة والبعيدة . وصلوا مكان الشغل ، وقفوا طويلاً أمام باب القائمقامية . كانت في المقدمة ، تمشي أمامهم . على يمينها جميل وعلى اليسار فريدة ، صغيرة ، متذمرة وضجرة . يمشي الجميع ، وأرامل الرجال الستة ، نساء الناحية ، أطفالها ، بناتها وشيوخها .

ستة توابيت ، وحدها «الفينة» مثل بيرق ناهض ، يتمايل ، يهتز ، يقف حين تقف الصفوف أمام باب كل بيت من بيوت الموتى . ينوحون ، يلطمون ويمشون حتى المقبرة . يفتحون الأرض وتطلع رائحتها الندية الباردة . بغتة ، تسحبها قبل الدفن تقبض عليها : «لا ، هذه آخذها الى بغداد ، هناك أدفنها» عملت لها صندوقاً زجاجياً وشبكت «الفينة» وسطه . أقفلت الصندوق ، رفعته بيدها ووضعته أمامها . تسلّم عليه قبل النوم ، تلمسه في الصباح وتطلق عويلها في الليل .

يوم غادروا إلى العاصمة ، حملت الصندوق على صدرها وحده . وزعت الأغراض كلها على أهالي الناحية . ركبوا سيارة الأجرة . أولادها صامتون وبين يديها الكلام الوحيد الباقي من الغائب .

*

لعائلة الجدة سرداب كبير ، نظيف ، واسع بعدة طبقات يقع في أول المقبرة . شجر الدفلى أحاطه بسياج كثيف ، مترب تدلت أوراقه على النافذة الكبيرة المطلة على الشارع الرئيسي . عُلّقت في أول مدخله شجرة الأنساب . الفروع والأغصان . انحداراً حتى الجذور الأولى . قدم نسل جدتي من الحجاز وجاء جدي من وسط العراق . هذا السرداب لعشيرة الجدة ولا يقبل دفن الغرباء فيه .

اختارت جدتي بقعة وراء السرداب . نادت على السيد «محمد البناء» . فتح لها قبراً جديداً ، أحاطته بسياج من المعدن الرخيص ، صبغه باللون الأبيض . زرعت على أطرافه شجراً لا أعرف اسمه . قصير الفروع كثيف الأغصان ، يطلق رائحة نفاذة غامضة في ليالي الصيف الحارة تشبه الضحك والبكاء . هناك دفنت «الفينة» داخله ، كل عام تعيد صبغه التالف ، ترمِّم حجارته وطينه ، تقص الأغصان ، تسقي منابت الشجر . تقف بطولها وبشرتها ونحيبها ، تدثره بالأدعية وتطيِّر له الصلوات .

كل ذلك الوقت تكون العمة فريدة واقفة مشمعة ، يابسة كأنها دخلت المصيدة . لا تنوح ، لا تبكي ، لا تعيط ولا تولول . شفتاها تتحركان ببطء ووجهها ينبىء عن كرب ثقيل . الجد كان يحبها كثيراً ، السيد جميل كان يعزلها طويلاً . وذاك المنير غاب ولم يقربها . تقلّبت في الحوش ثلاثة أيام . ضربت رأسها وطلع صوتها بكل بحّته وجبروته يطير بين الحجرات ويصل حدود الحواش الأخرى .

كل الأصوات ناحت وسكتت وفريدة لم تتعب . أمامها إقبال

ووراءها منير وجميل . الجيران ، النسوة ، والشائعات التي تتسرب بين الأفواه : «منير لم يعد بعد» .

«يقولون كان يعرف قبل أسبوع من العرس بخبر المرحومة» .

«ولم لم يقل؟»

«والله . . لا ندري» .

«كل يوم يسكر مع أبو ايمان . ينصبان الطاولة في البار ثم يودع الرجل إلى شارع الحوش ويختفي هو» .

«لا ، أبو ايمان يقول هو سيعرس بعد الأربعين» .

«يقولون ، أم جميل تكسرت مرة واحدة ، إقبال من جهة وفريدة من جهة ثانية ، وأبو عادل هجرهم ، أخذته المرأة الجديدة والأولاد» .

تنزل الجدة إلى السرداب . تتباطأ فريدة ثم تنزل وراءها . عادل يمسح تراب الدفلى ، يقطع أوراقها ويرميها على الأرض . أنا وراء النافذة أنظر إلى جدتي وهي ترخ صلواتها على الموتى .

أول عيد وإقبال غائبة . ننتظر في باب السرداب . نساء الطرف ، الخالات ، العمات ، الوجوه ارتخت ، البشرات تغيّرت ، الجفون ندية ، العيون وديعة ، العباءات مغبرة لكنها واقفة على الرؤوس . الأيادي تمسك أذرع الأولاد والبنات . السادة القراء ينتظرون العيدية . الفقراء يبسطون الأيدي ويتلون الدعوات منتظرين لحم العيد . الشمس لم تعاند عادل فتطلع عجولة وساخنة . السماء نفضت غيومها . «أم ستوري» تقف أمامنا وبيدها «علاكة» الخوص :

«هذا خبز التنور وبيض وبطاطا مسلوقة . كلوا بالقطار وادعوا لنا

من أبي الشهداء روحي فداه يرفع غمه عنا أجمعين . اللّه معكم» .

أحمل «العلاكة» على كتفي . نأخذ الحافلة إلى المحطة الكائنة في باب المعظم . القطارات واقفة ، صدئة ، مقشرة . الوجوه باسمة . الباعة يصرخون بصوت عال . ملابس العيد الملونة على أبدان الأطفال والبنات الذين يصعدون أمامنا . الوداعات القصيرة ، والبكاء المخنوق ، نصعد الدرجات . نجلس قبالة بعضنا بعضاً .

عادل وجدتي ، وقربي فريدة . القطار امتلأ بالجنود والحقائب . رائحة الأطعمة . تسحب العملة الأكياس . نبلع أول لقمة . صوت القطار وهو يتحرك يرخي عظامي ويصغر كل ما أمرّ به ، فأرى الكائنات من النافذة الحديدية العريضة الملطخة بالزفر وبقايا المخاط اليابس . تمر أمامي الوجوه مزدوجة ومجردة من الملامح . ألوح لها وبيدي نصف الرغيف وأدري أنني لن أراها ثانية .

- ١٢ -

أسمع الجلبة والزعيق . بكاء الأطفال ، مخاط الرجال ، صراخ الأمهات اللاتي بركن على أرضية العربة ، نشرن الأمتعة ، المأكولات . جلسن فوق الحقائب العتيقة المربوطة بحبال سميكة متآكلة . رؤوس النسوة مشدودة بالعصابات السوداء ، تنزل من أذيالها خيوط مبرومة ، جديدة ونظيفة . تصل إلى حدود الأجفان . بعضهن دفعننا إلى الداخل وجلسن فانحشرت قرب فريدة .

ننظر - عادل وأنا - إلى بعضنا . لا وجه يشبه محمود . لا بنت تعرج مثل فردوس . لا رائحة تطلع من الأفواه تشبه رائحة أمي . الجدة طلعت «المسبحة» السوداء وبدأت تسبح غير مكترثة بما حولها . العمة قضمت عدة لقمات وعافت الباقي في الكيس . الجدة لم تذق ولا كسرة خبز . عباءتها تلفلفها بإحكام على بدنها . تنظر بحدّة إلى

فريدة ، وبصوت خفيض صارم : «لمي العباءة على جسمك زين» .
عيون الرجال والنساء تنزع عن عمتي ملابسها . أرفع بصري إلى كل ما حولي . ذاك (أبو العقال) الجديد يشبه (الحاج عزيز) ، لكن وجهه أكثر هرماً وأقل بهاء منه . هذا الذي يجلس بعيداً أراه وهو يلف الورق على التبغ ، يبلّل شفتيه ، يبلع ريقه وينظر إلى عمتي ، يشعل سيجارته ، يتنهّد ثم يطلق صوته بأغنية جنوبية قديمة ، تدخل معه أصوات الجنود العائدين إلى الأهل . معظم النسوة يشبهن أم ستوري وأم عزيز .

صوت يطلع وحيداً لامرأة لا نراها وسط هذا الضجيج : «الذي لا يزور السيد عمره خسارة» .

الضحك ، العياط والغناء . عباءات الرجال ، الزبون والصاية الجديدان . سراويل مجعدة ، مكوية ، عتيقة ، مصبوغة . طويلة تلامس الأرض ، قصيرة حتى نرى ثقوب الجوارب . نشم زناخة الأقدام ورائحة الآباط المعروقة . صراخ الفرح الذي تطلقه الأمهات وهن يستحضرن أسماء «علي بن أبي طالب» وأولاده . ويطلقون الهلاهل .

تطلع «العلاليك» . أسياخ الكباب وبيض الغنم المشوية ، أرغفة الخبز التي بردت فانكمشت . رؤوس البصل ، حبات الطماطم الخضراء . حركة البلع والفكوك التي تأكل أمامي تدفعني للدخول بينهن ، أطلب من إحداهن نصف رغيف وأسياخاً من الكباب . أمد يدي وآخذ رأس بصل ، أجلس وسطهن وآكل ، عمتي لا أنظر إليها ، صوت التجشؤ يطلق ويسمع من الجميع .

ملابس الأولاد والبنات رخيصة ، الأحذية نصفها مصبوغ . الجوارب فردة قصيرة والأخرى طويلة . شرائط البنات تنزل إلى الصدر والرقبة مفتوحة ومبقعة بالزفر . لا أعرف بماذا أمسح يدي ، أتركها وأنظر إلى أصابعي . أقوم وأمشي إلى مكاني ، فريدة تتلفلف وتترك مساحة من صدرها للعين . أنظر إلى جدتي . قالت قبل السفر «ستلبسين العباءة لما نصل كربلاء» . أرى عباءتي في أسفل العلاكة ، جلبتها أم ستوري . أرى فوق رؤوسنا وحولنا الرجال ، الشباب يدخّنون ، يسعلون وينظرون . أدير رأسي إلى النافذة .

في العام الماضي جاء أبي من كربلاء . وضع بيدي ربع دينار وقال بصوت متردِّد «خذي عادل واذهبي للمراجيح . امسكيه جيداً وهو يركب . واللّه إذا صار عليه أي شيء أقتلك» .

على باب الحوش كانت إقبال واقفة صامتة . طلعت ربع دينار آخر من صدرها ، دفنته بيدي ودفعتنا للخارج بلا كلام .

أول عيد يكون ثوبي جديداً . لونه أصفر وعلى خصره حزام لامع من الستان الطري ، فضلة من قماش (اللحاف) الجديد . بضفائري شرائط صفراء جديدة . أم ستوري خاطت ثوبي في ساعتين وأكملت فريدة خياطة الذيل والكتفين . كنت أمشي ، أقطع الخيوط وأنفخها بالهواء . ملابس عادل الجديدة أرسلتها نورية من كربلاء .

فردوس ومحمود واقفان أمام باب حوشهم . ستوري ، هاشم ونزار ينتظرون في الفضاء الواسع الذي يقع وراء بيوتنا . هناك كنا نعيِّد ، أولاد وبنات الطرف .

ندور أمام عربات (الدندرمة) الوسخة بعجلاتها الصدئة التي كلما تمشي تقف فيضربها صاحبها حتى تستعدل . نقف أمامها . في بطنها تنكات رصاصية كبيرة عبئت بالثلج المجروش المصبوغ بالأحمر والأصفر والجوزي . صحون صغيرة مدبوغة اللون ، ملاعق عتيقة . يبيعنا الرجل ونأكل . نسحق بأسناننا الثلج ويصبغ شفاهنا لون الصبغ . نمد أيدينا ونسحب من التنكة الثانية (السيفون) و (النامليت) البارد بقنانيه الخضراء المعكرة . نخزّن البرد في أصواتنا ونمشي إلى أم عزيز العمياء ، التي كبرت طبقها الخوص . نشرت وسطه المصاصات الملونة ، شدت (شعر البنات) بعيدان رفيعة مشوكة ، ورمتها في علاكة خوص أخرى . نقف أمامها وتبدأ لعبتنا هنا . نغلف (الخمسة فلوس) المقرنصة الحافات بورق صقيل لامع فضي اللون ، نسويّه جيداً حتى نسد النتوءات من قطره ، فيبدو لها وهي تتحسسه بيدها (درهماً) . يمرّ الكذب عليها فنأخذ كل ما في الأطباق . بغتة ، يطلع صوتها بعد لحظات بالسباب علينا وعلى آبائنا . عادل يعود ويعطيها كل قروشه . محمود وهاشم ، نزار وفردوس . ستوري وأنا نلوك المصاصات ونرمي أعوادها على الأرض ، نطير شعر البنات إلى أفواهنا . نأكل ولا نبالي . نقف أمام بائع «الجرزات» نشتري الحمص اليابس ، فستق العبيد ، الزبيب الأسود والأحمر . نقضم ويسيح حبر الكلمات من ورق الدفاتر العتيقة بين أصابعنا . (الماصولات) صفيرها يفتح لنا الطريق . الطيارات الورقية مرشوشة في الفضاء بكل الألوان . الأيدي تشد الخيوط وشراشيب الطيارات تصعد وتهبط كلما

هب الهـواء مـثل طيـور الفـرات . أكف الأولاد والبنات تحـسب (العـانات) والفلسـات وتشد عليها بقـوة . شـباب المـحلة يقـفـون بالدشـاديش الجديدة ، يشدّون الأحـزمة الجلدية العريضـة فوقـهـا ويخبئون الفلوس بأكياس كتانية بين الخاصرة والبطن . ينادون على الجميع لركوب المراجيح . بين مسـاحـات النخيل الباسقة كانت الحبال السميكة تنتظر أيدينا النحيلة . أضع عادل على واحدة وأهزه بقوة : «امسك الحبل زين عدولي» أصعد للأخرى : «محمود هزّني بكل حيلك ولا تخف علي» .

أقدامي يطوّحها الهواء الساخن . أرى سقوف البيوت والحافلات الحمراء . . حبال الغسيل وشقوق النوافذ . ضفائري تقفز معي وأنا أدفع نفسي بقوة إلى الأعلى . فردوس أراها ، ساكنة ، هادئة . تنظر إلى حركة صعودي وهبوطي . ستوري يهزّ عادل وأنا أصرخ : «محمود أكثر ، أكثر» صوت الرجل وهو يمسك الحبل . أتمايل وأنا أنزل من السماء إلى الأرض : «خلصت الخمسة فلوس»

الأرض تراب وحصى وطابوق مكسر . نغطس فيه وتطلع الذرات على العيون . أمامنا العربات ذوات الخيول الهرمة . ينادي سائقها : «الفرة بعشرة فلوس» .

نصعد جميعاً . نمدّ الأرجل في الهواء . نحشر بعضنا فوق بعض . بيدنا الماصولات والفرارات الورقية الزاهية الألوان تتفتح بأيدينا كلما نفخنا عليها . تطلع أصواتنا «اشتقنا يا حلو واللّه اشتقنا ، صار لك زمان مفارقنا» . نصفّق ، نهرج . وبصوت واحد : «عمي الله يخليك

أمشي سريع شوية» . الخيل تشبه أم عزيز . العربة تدور بنا . الشوارع المبلطة حديثاً والمزدحمة بالناس والسيارات . نصعد السدة الترابية ، ننزل الى شارع المقبرة الملكية . هنا دفنت مليكة العراق الأولى . أم فيصل الثاني وشقيقة الوصي . وقفنا بالمدرسة صباحاً ، طلعت المديرة الست نبيلة ، بكت أمامنا . نكّسنا رؤوسنا جميعاً . نكّسوا الأعلام أربعين يوماً في كل مكان . بكينا على الملكة التي لم نر صورتها . لما عدنا إلى الدار كنا نتباهى أمام الأهل : «ماتت الملكة عالية» .

الشمس تدخل الآذان وتسد العيون . نحن نحيط زنود بعضنا بعضاً . تتعثَّر كف محمود بظهر فردوس وتصل ظهري . يزداد عرقي وضفائري تصير مفوضة ليد محمود . فردوس لا تفتح فمها ولا تغلق جفنها . هكذا هي : داخلها عصيّ وخارجها حييّ . أطول منك قليلاً . بشرتها قمحية ، عيناها يتمدد داخلهما الأخضر العنيف ، ضيقتان وحادّتان . أهدابهما كثيفة لكنها قصيرة . أسنانها متفارقة وعليها طبقة رمادية اللون . شفتاها يابستان كأنهما في حالة عطش دائم . إذا تكلَّمت تلهث وإذا تعاركت يطلع صوتها زاعقاً رفيعاً . تنفّسها يفرقع ويتقطع . كلامها دخلته لثغة جميلة فاستبدلت الراء الى غين . إذا ضحكت رفعت كفها إلى فمها . وإذا مشت سحبت ساقها اليسرى ودفعتها إلى أمام . كان حوضها قد خلع منذ الولادة . فلم تلعب بالشارع حتى السابعة . يسمونها : فردوس العرجة .

يوم انتقلوا إلى طرفكم وقفت أمامها . نظرتما بعيون بعضكما

بعضاً . هي الأخرى كانت أحلى منك . بضة ، ممتلئة ، لكنها صامتة . لم تتحدثا أول الأمر . بيدها «اللعاب» الكبير ، الصغير ، القبيح ، المخيف . وحولها بقايا الخرق والأقمشة الملونة . فحم أسود ، طبشور ، خيوط ، مقص ، أقلام . ترسم وتخيط ، تخرِّب وتخط بالفحم حدود الوجه ، حركة الأنف . تمسك بالقلم وتمشي على القماش بسرعة . تضع الأقراط في الأذن ، تعمي بعض العيون ، تشوِّه بعض الوجوه ، تحفر وتقص قماش اللعاب . تصنع وجوهاً تشبه الجراء ، القردة ، الوحوش . تجلب كل الحيوانات من الكتب ، الحدائق ، والشوارع . وتفصّلها أمامها . تخفي الحواجب ، ترقص العيون ، تكسر الأسنان ، وتسيح الدم على الأقمشة . لعبها غريب ، مقطوع الساقين ، أو بساق واحدة .

أنت واقفة تتفرجين ولا تتعبين ، وهي لا ترفع رأسها إليك : «اجلسي ، ليش واقفة؟»

«ليش ما تطلعين حتى نلعب بالدرب . أنا لا أحب اللعب بالبيوت» .

لا تردّ . كل أمر لا يعجبها لا تردّ عليه . بغتة تفتح حلق اللعاب على اتساعه ، تخلع الساق الواحدة وترميها على الأرض : «خذي ، هذه فردوس العرجة وهذه هدى الوقحة» .

«زين ، زين ، تعالي هنا على الدكة ، لن نذهب بعيداً» .

«لكن أبقي معي . . ها» .

وبقيت معها . لم تصدِّق بادىء الأمر . لم تكره أحداً يمشي أمامها ،

لكنها ظلت تبيح لنفسها ولمن حولها ، أنها فردوس التي لا تنتظر من أي واحد أن يمسك يدها ويقطعها الطريق . تقلب الأيام والساعات ولا تنظر إلاَّ إلى ساقها . كانت ترفع ثوبها أمامك لترى الفخذ المرصوص باللحم . تبقى ترهف السمع لصوت خلاياها الصغيرة اللطيفة : «انظري كل شيء هادىء الآن ، لكن بس أمشي أصير غير شكل» .

«وصارت فردوس غير شكل» . كانت الأولى على الصف والمدرسة . هي الصامتة ، العاقلة ، والشاطرة . المستغرقة بالسكوت كأنها سكرى على الدوام . احتفظت باللقب ولم تتنازل عنه أمامي أيضاً . في الشارع لم يجرؤ أحد فيما بعد على مناداتها بعاهتها . تترك نفسها لي ، أقودها ، أحضنها ، تحمل اسمها واسمك معها . لا تحب التعارف ولا الوجوه الجديدة . فضولها نزل إلى أعضائها وبقي هناك فقط .

الجميع يعرف خطوتها إذا حضرت للدار . كنا ننتقل من صف إلى آخر ، من سر إلى سرونتغيَّر . أرفع لها ابطي لترى غزو الزغب . كانت تنظر بحياء ، ثم عادت تحسب عدد الشعيرات . نقف معاً ، نقيس الأطوال ، الأذرع ، الامتلاء والنحول . طبقات الصوت ومرور الأسرار بين الأفواه . همهمة النهود وعفة الكلام على الغائبين من أولاد طرفنا . كانت تملك الوقت للأحلام ، فتقسم صبيان الشارع بالتعادل : « محمود لك . عادل خجول وحلو . هاشم الأحول يضحكنا . ستوري «المطيرجي» ابليس مثلك . و «هو» لي وحدي» .

هو : نزار ، أصغر منها عاماً واحداً ، لكنه أطول ، أقبح ، أذكى ، وأهدأ الجميع . هي لا تبدأ به . لا تعرف كيف تفشي السر .

تثير خيالها أولاً به ثم تدور حوله ، ولا تريد تكذيب أي شيء . كانت تغار من كل شيء وعلى أي شيء بشكل لا ندري كيف نحتاط له . «هو» لها وحدها . ظلت تكلّم نفسها عليه يومياً أمامي وورائي . عنها وليس عنه . تحسب عدد الخلايا وعدد الأحرف من اسمه ، تضربها على عدد حروف اسمها ، تجمع الباقي فيطلع نزار أمامها مثل الكنز . دائماً تقول : «هو» . تطيع نفسها أمامه طاعة مخيفة وهي تردِّد :

«هو عاقل . أنا لا أحب الولد الحلو . كأن الحلو يخوف . نحن نتشابه كثيراً» . لا أرد . تستمر : «مرات أستيقظ بالليل وأنظر إلى محمود وهو نائم . محمود حلو ، ها . لكن أنا لا أراه هكذا . كل واحد منا ينام يصير حلواً . بس أنا أحب الساكت . نزار سكوتي كأني أفهم عليه وحدي . كأنه يتحدث من أجلي ويسكت من أجلي . محمود مرات يصير مثل نزار ومرات يفلت لسانه» .

«اذا فلت لسانه ماذا يقول؟»

تفهم عليك فوراً فترد : «لا يقول أي شيء . لما يجىء اسمك يسكت ، زين ، السكوت أحسن من الكلام الغلط» .

«لا أفهم عليك»

«أمي مثلاً لا تحبك . تقول واللّه لو هدى ابنتي كنت حبستها بالحوش ولم أدعها ترى الشارع» .

«وأبوك»

«يقول لو اللّه خلق هدى مكان عادل كان أحسن»

«وأنت؟»

«أنا لا أخجل من عرجي أمامك» .

أول مرة تلقب اسمها وتطلقه عليّ . لم أر دموعها ولا مرة . لكني أجهشت بالبكاء أمامها ، أمام محمود وأمام الجميع . تتركني كما أنا ، حتى تسقط أهدابي وشعر رأسي . أعرق وأرتجف ولا تجيء صوبي . لا تلمسني ، لا تمسح دموعي ولا مخاطي . لا تفكّر عني ، ولا تضحك إذا ما بدأت الضحك . شكاكة ، متعالية . تمدِّد ساقيها أمامي ، تفرد ثوبها وتغطي ساقيها . تتحرّك كما لو أنها محمومة . غريبة تشبه معلمة صفنا «الست قدرية» . تنظر إليّ والى الموجودات وكأنها تراها أول مرة . تشبك يدها على صدرها ولا تتحرك . تنظر إليّ وكأني إحدى لعباتها . لا أحسدها ، لا أكرهها لا أنظر إليها ولا أنساها . أمامي ، ورائي ، نظراتها ، أنفاسها ، وضوحها . جاءت فردوس إليّ . لم تتحرّك أول خطوة إلا بقدمها اليسرى . عرضتها عليّ ، قامت أمامي ، تحرّكت ، أول خطوة خطتها ويدها تلمس الحائط . لما وصلت الدكة وقفت هناك . مدّت رأسها إلى الزقاق . نظرت بهدوء إلى كل شيء . بيوت الجيران ، سواقي الطين ، قطط البيوت الحبالى ، هررة الشوارع الأخرى ، رجال الطرف وهم يمرون أمامنا ، نساء البيوت اللاتي يجلسن على الدكات الحجرية . كان الشارع أمامها مشوشاً وكبير الشأن ، مشبعاً بالأجساد والأفكار ، مشعاً بالخوف والأوهام . بقيت تسند حوضها على الباب وأنا واقفة لصقها . يدي بيدها ، يدانا معاً تتلامسان . لم تقبض على يدي ، لكنها دعتني أمسكها فقط . لم تستعجل أي شيء ولم ترتجف أمام أي شيء . لم أر خوفها يوماً ، كأنها طوت شجرة الخوف تحت إبطها ،

كسرت أوراقها ، أكلت أغصانها وبقيت تنتظر تحت ظلها شيئاً أكبر من الخوف .

فردوس . أول عيد لم آخذها بين ذراعي وأبوسها . كانت تسلمني «العيدية» قائلة : «اصرفي أنت واشتري كل ما تشترين لنفسك . فقط لا تدعيني أركب المراجيح»

«واذا ركبناها معاً . هل تقبلين؟» .

لا تردّ .

الصبيان الخمسة يهزوننا وهي تمسك الحبل بيد وبالأخرى تقبض على خاصرتي . لا يرف لها جفن ولا تتلعثم . لكن وجهها يصفرّ ، يزرقّ . نصعد عالياً وأنا لا أنظر إلاّ إليها . هي لا تنظر إلاّ إلى السماء . نهبط ونصعد . أغنّي وأصيح وأنا أرى قدميها أمامي في الهواء . أضرب حذاءها بحذائي . أداعب ساقها . لا تضربني ولا تزيد ضغطها عليّ . لا تكشّر بوجهي ، ولا ترى أحداً أمامها . عيون شاخصة ، شفاه يابسة ، وصوت لا يحل نفسه مهما حصل . حين تتمايل الأرجوحة يتكوَّم الصبية حولنا ننزل . الجميع يضحك إلاّ هي ، نزار يقترب منها ، ينظران في عيني بعضهما بهدوء . تأخذ من يده قنينة «البارد» : «شكراً نزار» . تمشي أمامنا وحدها . تقف ولا تلتفت إلى وراء . أصير قربها وأنا ألهث . وبصوت يطلع من بئر : «يا ريت يقبل نزار نركب الأرجوحة سوية» .

هذا القطار يشبه الأرجوحة . نقف طويلاً ثم نمشي ببطء . يصعدون وينزلون في المحطات . أصوات الباعة ، بائعو السجاير ، العلكة

والبارد . المحطات خربة ، غرف العاملين وسطها مهدمة . موظفو القطارات بأرديتهم الزرقاء الكالحة يصعدون ، يفحصون البطاقات ، يسعلون وينظرون إلى عمتي . أنظر بكل عيوني إليهم . قمت عدة مرات وفريدة تجرّني بقسوة وتلصقني قرب النافذة . عادل لم ينفد صبره مثلي ، تعب فنام في حجر جدتي . أنظر إليه وأراه أجمل من هذه الطيور التي تطير أمامي . بيوت واطئة ، كالحة مصبوغة بدهان فاقع بين الكموني والكركم الوسخ . أشجار واقفة ، وحيدة ، عارية ، يابسة لا تتحرك ونحن نمر أمامها . دكاكين وكراجات مفتوحة نصف فتحة . سيارات عتيقة مقلوبة ، بايسكلات يجرها الشباب على محاذاة السواقي . أعلام عراقية نائمة من الحر والهواء الساخن على مراكز الشرطة والدوائر الرسمية .

جدتي لم تدخّن حتى الآن ولم تذق أي شيء . أقول لها :

«يمه أعمل لك لقمة . أنت لم تذوقي الطعام من ليلة البارحة؟» .

«سنأكل كباب كربلاء بَالحضرة الشريفة . كباب كربلاء بالوصف» .

«وأبي ! . .»

ترد فريدة بغضب : «ما به؟»

«هل سنذهب إليه؟» .

تمسح جدتي شعر عادل ولا تنظر إلينا :

«نوصلكما أنت وعادل إليه ، ونحن نذهب للحضرة»

«وبعدين . !»

بصوتها العابس : «ماذا بعدين . نحن لا نذهب إلى داره . إذا أراد أن يرانا فليأت الى الحضرة»

«ونحنَ . .؟»

«ما بكما؟ إذا أخذكم لداره اذهبا . هناك أخوتكم الجدد . ونورية العوراء والله هي التي موّتت إقبال»

صوت جدتي الحاسم الواضح : «الله أخذ اقبال . لا تسمعين هذا الكلام . سلّموا عليه . قبّلوا يده . قولوا له الله يرضى عليه إذا عمل الصالح ، اشتاقت روحي أن تراه وتسمع صوته ، أريد دخلته للبيت ، أقبل اذا صار عصبياً . إذا سكر وحمله الرجال إلى الحوش ، أقبل إذا ضربكم . قولوا له ، أمك تدعو لك بالعافية وراحة البال والرزق الحلال» .

يتمايل صوتها . تنزع نظارتها وتمسح دموعها . يتحرَّك عادل في حضنها . يطويها ويشهق في صدرها .

«تعالي إلى أين ذاهبة؟»

«اتركيها شوية تتمشى»

يلحق بي عادل . يمشي ورائي : «قفي شوية» .

نقفز فوق الأغراض . العيون مفتوحة علينا . الوجوه تتفحّصنا . نقف أمام النافذة ، نجد موطىء قدم بين الصبيان والبنات . نطلع رأسنا من النافذة . الهواء الساخن يعمي عيوننا نتمايل ونتصادم مع الآخرين . أرى أعداداً من الذباب الذي استقر على الزجاج وبين فتحات الأنوف من حولنا ، أكشه ويعود .

«نورية العوراء هي التي موتت اقبال»

«صدق سنذهب إلى دار أبي؟»

«اذا تريد أذهب»

«وأنت»

«لا»

«واذا أخذنا ماذا سنقول له؟»

«جدتي تريد أن تراه حتى ولو من بعيد . سنقول له ذلك»

«يمكن يزعل ولا يأتي»

«ويمكن يأتي معنا»

إقبال شطرت أبي إلى قسمين .

«سدة الهندية» القطار يقف طويلاً هنا . أول مرة نزور كربلاء . وأول مرة نركب قطاراً . أذان الظهر ، قامت تفرش بعض البسط والسجادات على الأرض المنبسطة أمامنا وتتوجَّه إلى القبلة .

«يمه ، سننزل قليلاً هنا»

بصوتها الغليظ ترد فريدة : «ابقيا أمامنا لا تذهبا بعيداً»

الهواء يلفحنا كأنه يأتي من فرن . الأشجار العالية حولنا تحيط محطة استراحة الهندية . سواق عميقة يسبح بها الصبية وهم عرايا . نسوة استرخت أقدامهن في المَاء الخابط . بعضهن انحنين يشطفن ، يغسلن ويعصرن الملابس . صحون وطناجر معدنية تفرك بالطين وتغسل ثم تقلب على الأرض .

خراف، أبقار، ماعز تنتشر أمامنا، تشرب من أول الساقية تطلق أصواتها، تأكل العشب الأصفر المخضر. أصوات مواويل تأتي من الطرف الآخر من الساقية، يقطعها سباب عال. عادل لا يتحرك، واقف تحت نافذة القطار. ينظر إليّ وأنا أمد يدي للساقية، أغسل وجهي وأنظر إلى النسوة. ينظرن إليّ ويتضاحكن.

صوت القطار يهدر ثانية. العرق يلبِّد الشعر ويلصق الثياب على اللحم. أشم رائحة إبطي. لعمتي رائحة كريهة تشبه روثاً يحترق. سأجلس بعيداً عنها. «بعد شوية نصل كربلاء».

كل مرة أسمع صوت جدتي وأفكر أنني أسمعه أول مرة. يترك لي عادل مكاناً قربه. المباول في القطار بعيدة. عمتي تقول: «كلها وسخة وتجمع الأمراض».

السماء تشبه وجه أبي. نهتز جميعاً إلى أمام ونقذف فوق بعضنا. نقف في محطة كربلاء.

بصوت به رائحة تشفّ قارص تهجم عمتي عليّ قبل أن أنزل. «إلى أين؟ تعالي. والله إذا رآك أبوك مفرّعة يقتلك أمام الناس. خذي العباءة. لفّي نفسك مثل الناس».

«أمسكي يد عادل جيداً»

«إذا ضاع أحدكما قولا نحن أولاد المعاون جميل المعروف».

أتعثّر وأقع وعادل يضحك عليّ. بعد دقائق من المشي بدأت أحكّ شعري. كل لحظة ألمها وتسقط من رأسي، يضيع صوت جدتي بين زعيق السيارات وضجيج العيد. أنفس لا تحصى ولا تعد. غمامة

سوداء كانت تمشي أمامنا على الأرض لا نرى الا بعض الألوان فوق الرؤوس . دشاديش الأطفال البيضاء والزرقاء وهم يتحركون فوق أكتاف الأمهات .

الجدة والعمة ينزلان «البوشي» على وجهيهما . لم نعد نميّزهما إلاّ من الصوت . الرجال أمام الدكاكين بالألبسة البيضاء والفانيلات . نثروا البضائع كلها . السجاد ، البسط ، الأقمشة بكل الألوان . الذهب ، السيوف التي تبرق كلما جاءت الشمس عليها . الخضار ، والفواكه . بطيخ مكسر ومصفوف في الصواني الكبيرة . أقداح من اللبن البارد . المكتبات وأرفف الكتب السميكة الملونة بالأخضر الغامق عناوينها مكتوبة بماء الذهب . صور لسيدنا علي . ووراءه السيف ذو الحدين يلمع هو الآخر . أنسى لمّ العباءة فتضربني إحدى النسوة على صدري وتبقى ماشية . نقف وراءهما ، يصعدان العربة ذات الخيول . نجلس أمامهما . جدتي تقول : «سيدنا إلى سجن كربلاء» .

«أي اليوم زيارة العيد . من عندكم هناك؟»

«عادل يرد : «أبي» .

«اللّه يطلعه بالسلامة»

جدتي تقرأ الصلوات وترد : «لا ، هو يشتغل هناك» .

«ها . . . .»

يضرب الخيل بقوة . تركض بنا العربة ونحن ندور في أزقّة كربلاء الواطئة ، العالية العارية ، الوسخة والحارة . نمشي كثيراً . ونطلع

خارج المدينة . فضاء مغبر وسماء مكشوفة . لا نبتة . لا شجرة ، لا دار ، ولا كراج . لا سيارة ولا حمار . تراب كلسي وغبار ناعم خفيف ينشر علينا ، والعربة تكسر الحصى ونحن ندوسه في طريق ترابي طويل .

«والله لخاطر الأولاد أخذتكم معي . لا أحد يذهب بهذه الساعة إلى هناك» .

جدتي : «نوصل الأولاد ونحن نعود معك إلى الحضرة» .

«ذاك هو السجن . وصلنا»

صوت عادل : «يمه أنا خائف» .

جدتي تمسكه من رأسه . تحضنه ، تقبله . أجرُّه وأنزل . تنزل العباءة على الأرض . أرفعها ، أنفضها وأضعها على رأسي والعلاكة باليد الأخرى .

«اسمعوا إذا لم تعودوا بعد قليل ، سنذهب»

«وإذا . . .»

«ستأتون معنا إلى الحضرة . هناك سنقضي الليلة»

أول ضربة على هذه الأرض . من بعيد يبدو البناء مثل شاحنة مقلوبة . سور شاهق لونه بلون اليود المستعمل . لا أرى وراءه حتى السماء . كائنات منثورة حوله تلمع عباءاتهن إذا ضربتها الشمس . أطفال أداروا رؤوسهم صوب الأبواب التي كانت أكبر من باب الجامع ، عريضة ، مخيفة ، مضروبة بقطع الحديد في وسطها وعلى أطرافها . حلقات حديدية دائرية بدأت من الأعلى إلى الأسفل . يلهو

بها الأولاد ، يدخلون أصابعهم داخلها ، ويدفعون أجسامهم عليها . في الوسط ثقب كبير جداً أرى داخله مفتاحاً لا يتحرك .

سيارتا (جيب) وقفتا متقاربتين أمام الباب . اتكأت عليهما بعض النسوة ونام داخلهما بعض الأطفال . مفتوحتا الأبواب والسقف . رائحة الزبالة المحروقة تهب كلما دخل الهواء في محتوياتها ، فطارت الزناخة في الفضاء .

عادل يمشي صامتاً يعبث بالحصى ويدفعه بقدميه بعيداً . العيون تلمسنا ولا تشيح نظراتها عن قاماتنا . أقف أمام الباب . أضع العلاكة على الأرض . وأترك العباءة تسقط على كتفي . أنظر حولي . إحدى النسوة تردِّد بصوت واطىء : «عندك ساعة»

«لا»

«الزيارة بعد الساعة الثالثة» .

أضرب الباب بيدي . يضحك الأولاد عليّ ، ويتكوَّمون حولي . أنظر إلى حركة كفي ، كأنها أجنحة ذبابة على وشك الموت . أنزل رأسي إلى الثقب الكبير وأطلق صوتي : «عمي نحن أولاد المعاون جميل» .

صمت الأطفال . النسوة أدرن رؤوسهن عنا . بعد دقائق يطلق الباب صريره الحاد ووجه أحد رجال الشرطة أمامنا .

ويتحرَّك الجميع مثل موج عليه يقفون ، يقتربون يحيطوننا بدائرة . يمسكوننا من أكتافنا ويدفعون بنا بعيداً . الرجل يلتفت باحثاً عنا بينهم . العباءة يمسحون بها الأرض والعلاكة أقبض عليها وعلى يد

عـادل . الرجل يزيل كل الناس ، يصـيـر أمـامنا ، يمسكنا بيـده ويدفـعنا أمـامه . يلتفت بعـصـبـية صـوبهـم : «كم مـرة نقـول الزيارة بعـد السـاعـة الثالثة» .

قبـل أن أدخل أمـدُّ بصـري ، أرى العـربـة ، رأس جـدتي يشـبـه نـسـراً مضروب الرأس . ألوح لها بيدي . ندخل ويقفل الباب علينا .

- ١٣ -

«أنت عادل» .

لا يردّ .

«وأنت هدى» .

«وأنت» .

«جاسم ، العريف جاسم» .

«أبي موجود؟» .

«موجود ، لكنه يفتش»

«يعني هو هنا» .

«نعم» .

هدأت قليلاً لما سمعته يتحدث . تذكرت هاشم الأحول . عندما يكبر بعد أعوام سيشبهه . أراد أن يساعدني ، حاول أخذ (العلاكة)

فرفضت . كنت أحركها من يد إلى أخرى ، والعباءة تعيقني كثيراً ، أتعثَّر بها ، ألويها ، تفتح عن جسمي النحيل ، وقبل أن تسقط يرفعها عادل معي ويأخذ العلاكة . أبدو وأنا أرتديها مثل دمية فردوس القبيحة والمضحكة . ألمُّها مجدَّداً وأنظر إلى حذائي وأنا أسحبه على الأرض .

عادل يمشي بقدمين لا أدري إن كانتا تجرّانه أم كان يسحبهما . ساقاي تصطكّان ، أصابعي وأنا أمسك العباءة تهتزّ ، أريد أن أبلع ريقي لكني لا أقوى . لو جرَّبت لبسها من قبل . آه لقد عملنا ذلك من قبل ، فردوس وأنا ، كنا نضحك طويلاً ونحن نطلق أصواتاً تشبه صوتيْ : عمتي وأمها ، ونسكت قبل أن يدخل أحد علينا .

العريف يمشي سريعاً ثم يقف بانتظارنا ، ثم يعاود فيصير أمامنا .

درب طويل مفتوح غير مبلط إلاّ بآثار الأقدام ، والحصى اللامع الصغير والكبير . تراب أحمر يتموّج وهو يلمّ نفسه كلما جاءت الريح تفتح فيه ثغرات ثم تسدّها ، تكوّرها وتقذفها عالياً في وجوهنا . أُنزل طرف العباءة على وجهي وأكاد أسقط ، فيلمسني جاسم من طرف وعادل من طرف ونقف . أغلق فمي ، أزمُّ على شفتيّ وأشمُّ الذرات التي دخلت شعري وبين أصابع قدمي .

«سيدي سيفرح لما يراكما» .

فضاء كلسيّ لونه أصفر ، أبيض ، أحمر . السور وراءنا ، غرف لا أعرف تعدادها أمامنا ، بعيدة صغيرة ، تشبه قذى العيون الوارمة .

لم أتبيَّن لونها ، فكرت لو أسأل جاسم عنها لكني صمتّ . قلت

ربما لونها بلون الزيتون المطبوخ . لقد بدأ العرق ينزل من أول رقبتي ويمشي إلى عمودي الفقري ، أشعر بحركته في ظهري ، يتحرّك ولا أعرف أين توقّف . بدأ شعري يهرشني هو الآخر ، أمدّ يدي أحكّه ولا أريد أن أنتهي . أمس اغتسلت في حمّام البيت ، من أشهر لم نذهب إلى حمام السوق . لمّا طلعت من الحمّام وقفت أمامي فردوس وهي تنظر إليّ : «لما تكبرين ستكونين طويلة ، والعباءة ستكون جميلة عليك» . ما زلت قصيرة وهذا الغطاء يجعلني أختنق وألتوي في كل لحظة . تنورتي سوداء وقميصي أيضاً ، استعرته من فردوس ليلة الموت الأولى . خاصرتي تنضح ماء ، ألمس وسطي وأترك طرف العباءة فيسقط وتطلع بين يدي ذرات التراب والعرق .

لا شجرة واحدة في كل هذا الفضاء . لا أدري كم سرنا؟ ساعتي عاطلة منذ أشهر ، جلبها لي الوالد عندما انتقلت إلى الصف السادس الابتدائي . أقبل لو بقينا نمشي ، لكن العطش وضربات المثانة . لماذا لم يطلب عادل التبوّل حتى الآن؟ كيف أطلب هذا الأمر ، هو صبور وكتوم ويستطيع التبول على نفسه إذا رأى أبي أمامه .

الباب الداخلي للسجن صار أمامنا ، كبير ، عال هو الآخر . ندخله كما تدخل القطط باب المسجد . طلع الرجال ، طلعت أصواتهم ، شواربهم ، بساطيلهم السوداء الكبيرة المسنّنة بالمسامير ، رائحة آباطهم كانت تفور عليّ وأنا أنظر بكل عيوني عليهم . يديرون رؤوسهم . أحدهم وجهه كان حليقاً ، جلده منمّش كأن الشمس لم تضربه ولا ثانية .

نمشي في ممر طويل مظلم . الرجال يخرجون ويدخلون ، ينظرون ويلتفتون . الأرض من الطابوق المكسر الأصفر العتيق ومشطوفة . رائحة يود ومعقمات تفوح منها ، لكن الذباب كان يقوم بجولاته حولنا ، لا يكترث بالنظافة ولا يهتم بالشرطة .

يطنّ بين الأنوف ويقف بين الرؤوس الحاسرة . لا أحد يكشّه ولا أحد يقتله كما نفعل في حواشنا .

«تفضلا . هذه غرفة سيدنا»

نقف في الوسط ، عادل يمشي قليلاً يضع العلاكة في وسط الغرفة يجلس وراء طاولة أبي . أنظر إلى كل ما حولي . ألتفت وأدور ، أصل المرآة ، لا أرى إلاّ طرفاً من رأسي ، ارتفع على رؤوس أصابعي ، أتعثّر وأسقط أنا والعباءة . أنظر إلى الأرض التي بقعتها هذه القطعة من القماش الحريري الهفهاف . أكوّمها بين يدي وأرميها على السرير الوحيد في الغرفة .

الأرض من الكاشي الذي اختفى لونه فصار بلون الوحل . طاولة حديدية مستطيلة سميكة الجوانب . ثلاثة جوارير مقفلة على جانبها الأيمن ، الأوراق فوقها مرتّبة . أبي يحب النظام كثيراً . ظروف وفايلات مكدسة بالسنتيم . قدح من الماء الفارغ في قعره بقايا رمل . صحن سجائر عتيق به أعقاب مطفأة حديثاً ، أرفعه لسلة الزبالة الصدئة وأعيده للطاولة . جهاز هاتف أسود جلده مبقع ومفطر عند الأرقام ، عتيق وعليه شعار الملكية . كرسي خشبي ذو مسند عريض وضعت عليه مخدة مربعة طلع جزء من قطنها الأسمر الوسخ ، عادل

أسند رأسه عليها . على الحائط وفوق الكرسي في الجدار العالي صورة الملك العراقي والوصي على العرش بالملابس الملكية البيضاء الزاهية ، مؤطرة بإطار فضي قديم ، مغبرة قليلاً وأنا أراها من بعيد . أقترب ، أمسحها بيدي وأنظر : الملك العراقي ساكت والوصي أسنانه متناسقة .

عادل رمى رأسه إلى الوراء . أمشي وأصل النافذة الوحيدة ، هي الأخرى كامدة الصبغ ، عليها ستارة مجعدة رخيصة . أقف أمامها تهب عليّ رائحة الشوك البري الذي تكوَّم مثل نافذة ثانية خارجية . علق بأسياخ حديدية على فم الشباك . خرطوم مياه أسود رفيع كان يوزِّع صوته على رؤوس الشوك ويمشي في أضلاعه ، يرطب الهواء الحار ، يمص الغبار والتراب . تفوح رائحة برد خفيف سري يدخل ضلوعي وينشف عرقي ويصعد إلى رأسي . في السقف مروحة هوائية كانت تخرج صوتاً يشبه صوت فردوس وهي تتحدث . على الطرف الآخر سرير حديدي واطىء جداً مغطّى بشرشف بلون التراب ، على طرفه دشداشة أبي الزرقاء وعباءته ، تحته نعله الجلدي الكبير .

أمامنا مغسلة لونها معتم لكنها نظيفة وفوق رفّها المعدني الرخيص عدة الحلاقة . على الحائط كان المسمار الكبير يمسك منشفة وجه غاب لونها الأصلي .

أرفع العلاكة ، أضعها في إحدى الزوايا وأجلس على السرير .

جاءني النعاس فوراً . ظلام حلو وهواء رطب ، ولا صوت من الخارج . أنزع حذائي ، أدوس الأرض حافية وأرى طبعة أصابعي عليها .

لا نتحدث عادل وأنا ، ولا ننظر إلى الباب . لو تركنا هنا لنمنا حالاً . هل سيغضب أبي إذا شاهدنا أمامه ، وإذا غضب هل سيضربنا أمام الشرطة؟ لم يضربني أحد منذ أشهر طويلة . يقولون كبرت ، عيب البنت تضرب بعد أن بلغت .

البلوغ : فتح باب المجهول أمامي فرأيت قطرات الدم في اللباس الخام والواسع . لم أفزع . لقد رأيت دمك ينفر من أنفك وساقيك وفمك . ذلك دمي الأول احتكره السيد جميل . وهذا الدم سيكون لك وحدك . نزعت اللباس ونظرت إليه طويلاً . درّبتك الجدة والخالة وداد فاكتملت بالسر . قالوا : إذا بلغت حلَّ عليك خوف الرجل ، أي رجل ، تقدرين أن تصيري أماً أو إلهة . ارتعبت ، الأم ماتت والآلهة لا أعرف أشكالها . ما كان الدم يخيفني ، لكن بشرات الأسياد : جميل ، منير ، وأبي ايمان . . و . . كلهم طلعوا من الغرف السرية الخانقة وبدأوا يرشون عليك خراطيم النار . نقرت على لباسك بأصابعك النحيلة الرفيعة ، أقفلت الباب عليك وتركت الدم أمامك ، تنظرين إليه كما لو كان أخاً جديداً لك . هذا دمك وأول مرة يطلع وأنت لا تضربين أو تصرخين .

يدخل العريف جاسم حاملاً صينية دائرية عليها قدحان من اللبن يضعها على الطاولة ، أصير أمامه «عريف جاسم ، عادل يريد أن يغسل وجهه . . و» .

«المغاسل في آخر الممر على جهة اليمين» .

عادل لا يأبه ولا يتحرك . يبدو ورأسه إلى الوراء كأنه ميت .

قطرات ماء بارد على ظهر القدحين . قطع الزبدة الكثيفة الدهنية ، تدهن شفتي وأنا أشرب . يشرب عادل ولا يردّ . صوت أبي ورائي ، القدح يترجرج بين فمي ويدي ، يتساقط على ثيابي وأنا أضعه على الطاولة وألتفت إليه . يمشي إلى عادل أولاً ، وحول الطاولة ، يأخذنا بين ذراعيه يحضننا ، يطوينا . هل قصر أبي؟ أم أن بنيتي هي التي استطالت؟

يدخل عادل في البكاء وأنا لا أدري ماذا أفعل؟ لا دمعة تريد الطلوع ، لا كلمة تريد الجلوس ، وهو حائر أكثر منا .

صوت عادل وهو يعترف أول مرة : «يابا أمي راحت» .

صوت العريف جاسم وهو يضرب لأبي التحية . أسمع صوت ساقيه وهما يصطكّان بحركة واحدة ويده إلى أعلى : «تأمر بشيء سيدي؟»

نتشبّث به ونحن نلتفت سوياً للعريف ، ينظر إلينا ، يرفع عادل إلى صدره ، يمشي به إلى السرير وأنا أسير وراءهما .

«أكلتما؟»

لا أحد يردّ .

«اذهب واجلب عشرين سيخاً من الكباب من المدينة»

يترك عادل ، يخرج نصف دينار ، يمشي إلى الطاولة ، يمسك القدحين بيديه ويأتي صوبنا : «اشربوا اللبن الآن»

لا ينظر في وجهي ولا في وجه عادل ، يمد يده إلى المغسلة ، يفتح الحنفية ويبدأ بغسل وجهه ، يجفّفه ، ينزع سترته . بقع العرق تحت أبطه ، في بطنه ، وعلى ظهره .

يجلس قرب عادل ويمدّ ساقيه . أنزل إلى الأرض أمامه . أنظر إلى قدميه . «البوط» صار حذاء عادياً ، أفتحه وأجرّه ، أبدأ بنزع الجوارب ، لكنه يسحبها قائلاً : «شكراً هداوي ، سنخرج بعد قليل» .

يداعب شعر عادل ، ينيّمه على فخذيه ، يمسح وجهه ، ينظران لبعض ، يرفع رأسه إليه وأنا واقفة أمامهما : «أخذتما الشهادة لو بعد؟» .

«يابا عادل نجح . وأنا» .

يجرّني من يدي ، يأخذني إلى جانبه ، يطوّقني بذراعيه ، تهطل دموعي ، يبكي أبي . يترك يديه عنا ويرفعها إلى رأسه ، يغطي وجهه ، صوت نحيبه يعلو ويتعلّق في هواء الغرفة .

هذا الوجه لا أعرفه من قبل ، وكل تلك اللحظات والصور القديمة كانت تقربنا من بعض . وجهه الشاحب ، الشيب الرقيق الذي ازداد بشدة ، المظهر الطاغي الذي أدخلنا في النفور والكراهية ، هذه دموعه ، لا يستأجرها من أحد ولا يغطيها بالمنديل . لا يتخطانا بها ولا نعثر عليه إلاّ قربها . لو تدري إقبال ، لو تدري وفيقة ، لو يدري الطرف كله ، أن السيد جميل يغطينا الآن بعويله وجاذبيته ، نتوَّجهُ الآن أباً على رؤوسنا الصغيرة ، يختم عليها بالشمع الأبيض ويرافقنا ونحن نقطع الطريق . لا مسدس يتضرع إليه ، لا سوط يرهق جلودنا . جميل الذي يفرط بالبكاء ، ونفرط في الوقوف على رأسه ، نمسكه من الذراعين ، نأخذه من الأطراف ، ونتوجّه إليه . ندخل في حضنه ، ويطوّقنا ، يبوسنا من الرقبة والشعر ، يشمّنا من الأذن والبلعوم ،

ويتسرّب دمعه بين أيدينا . نبكي كما لو أن إقبال أمامنا جميعاً ، تطلع من السجن وتدخل إلينا . يوقفنا أمامه وينظر في وجهينا ، لا ينزل عينيه عنا . تجرأ ، تجرأنا ، وتعارفنا ، فلم يكن أمامنا إلاّ الدمع والشجن وكل هذا الاختضاض .

تغيَّر أبي ، داهمنا ونحن نراه يتغيَّر ، تأخَّر علينا ، فحضرنا في منتصف الطريق .

أبي .

نمسكه ونهزّه ، نقف معاً ونمشي به إلى المغسلة . يتمخّط ، يغتسل ويئنّ ، ونحن وراءه . أمسك عادل ، أمسح وجهي بكفي ، أضع العباءة على رأسي ونمشي إلى المغاسل .

نعود ونراه ممدداً على السرير ، وجهه مشطوف ، عيناه داميتان وفمه على وشك الحديث . نقف على رأسه ، يجر عادل قربه وأنا ألوب وحدي . أرفع «العلاكة» وأمشي إلى الطاولة ، أفتح الأرغفة ، أقشر البيض والبطاطا : «يابا هل تأكل معنا؟»

«انتظرا الكباب»

«جدتي وعمتي ستأكلان الكباب في الحضرة»

بصوت خفيف متردد يسأل : «وكيف هما؟»

يقف عادل أمامه : «يابا ليش ما تزورنا مثل الأول . . ها . .؟»

أتابع وراءه : «يسلمان عليك . جدتي تدعو لك دائماً كلما تصلي ، ترفع رأسها وتقول ، حنِّن قلب جمولي ، تريد أن تراك ، تقول ، أقبل حتى إذا صار عصبياً وضربكما ، ها يابا هما في الحضرة» يدخل

العريف جاسم . لا يرى أبي أمامه ولا يعرف لمن يضرب التحية .
يتحرّك أبي على السرير ويقوم واقفاً .

رائحة الكباب ، البصل والكرفس المثروم . أفتح الكيس وبخار خفيف يطلع بين أصابعي ، طبقة من الدهن التصقت على بطن الخبز . «السماق» الأحمر مرشوش على أسياخ الكباب وباقات النعناع ذابلة . الطرشي الكربلائي الحادّ مطبوخ بالخل القوي . الفلفل الحارّ ، الشلغم المسلوق بلونه الوردي ، الخيار والطماطم . يعود العريف جاسم وبيده «سراحية» اللبن وأقداح نظيفة . نأكل نحن الثلاثة . أول مرة نأكل معاً . يكسر أبي أرغفة الخبز ويضع الكباب وسطها ويدفعها لنا . صوت عادل : «الحمد لله ، أنا شبعت» .

العريف جاسم يصير وسط الغرفة ، كلما يرفع يده أريد أن أضحك . شاربه غض ، ولونه أصفر ، وجهه حليق ، شعر رأسه مفلفل ، وخيط واحد أخضر مرفوع على كتف سترته . قصير ، مربوع القامة وأسنانه بيضاء : «سيدي سنفتح الباب الساعة الثالثة والنصف» .

«أتركوا الانفرادي لما آتي أنا» .

يمشي ويجلس على السرير ، يأخذ حذاءه ، يلبس سترته ، يضع «السدارة» على رأسه ، يعدلها وهو يقف أمام المرآة . يغسل يده ويجففها .

«يابا نذهب معك»

وعادل : «للحضرة؟»

«لا ، ليس الآن» .

أصوات الرجال في الخارج ، حركات أقدامهم ، مشيتهم العسكرية . أبواب تفتح ، حركة المفاتيح الكبيرة وطقطقة الحلقات الحديدية . عادل يمشي إلى النافذة ، يزيح الستارة ، يرفع رأسه ويرى ، وبصوت حزين : «يابا ، تتذكّر لما كنت تقول لي ، تعال شوف كيف أعيش بكربلاء ، تراب وموت أسود ، يابا لم أنس كلامك حتى الآن» .

يلتفت عادل إلينا ويجري إلى أبي ، يدفن رأسه في صدره . نطلع من الغرفة .

أتدثّر بالعباءة ، لا يطلع مني إلاّ وجه دميم مطعون ، وكلما نمر يقفون قبالتنا ويضربون لنا السلام .

طلعت الشرطة من الأبواب والغرف ووقفت في الباحة الكبيرة . بنادقهم على الأكتاف ، وجوههم راكدة ، شفاههم مزمومة ، ملابسهم معروقة ، والشمس تنزل عمودية على الأسلحة ، فيطلع بريق أمامنا ونحن نعبرهم ، ينظرون إلينا ، رموشهم تهتزّ ، أجفانهم تتحرّك ، سواعدهم غير ثابتة ، صارت الباحة الشاسعة موجاً بشرياً ينهض ، يتحرّك ويدور . النسوة يطلقن أصواتهن وهن يتصايحن . تفتح الأحضان والصدور ، تنفث الآهات والكلمات المتقطعة . تتدحرج الدموع وتلتقطها الخدود . دقائق تنقض على الموجودات ، الأشياء والوجوه .

الأولياء ، الأقرباء ، الآباء ، الأخوة ، الأعمام والجيران يجرون الأذيال ، ويطلعون الأكياس ، يوزّعون الأغذية والسجائر ، يرشون الماء والنقود القليلة ، ينوحون ، يبوسون ، يسكتون وينظرون ، ونحن نخوض وسطهم . يلمسون رأس عادل ، ويحدقون في وجهي .

وجوه المساجين ، القامات النحيلة ، الطويلة ، القصيرة ، العيون اللائبة ، والخدود الخاسفة ، الشوارب الكثيفة والفكوك النازلة . الدشاديش الوسخة ، النعال اليابسة . الجميع يصير كرة واحدة ملونة ، جوالة ومجنونة .

رجال يشبهون رجال طرفنا : أبو محمود ، أبو ايمان ، أبو هاشم ، والحاج عزيز . نقترب وتلك الأبواب التي كان لونها زيتونياً ، كانت بلا لون . ها هي أمامي ، ألمسها بيدي ، أنظر إلى داخلها : دكة حجرية ، ورق أسمر سميك ، الأرض محفورة ، الجدار عال ، الذباب طلع إلى الخارج حراً وحيداً ، الرائحة تفوح تشبه فرن الخباز في شارعنا ، تشبه طمي الفرات في أول أشهر الفيضان .

يتركني أبي ، أتركه . لا حجر فوق حجر ، ولا جار قرب جار .

كيف يضحك ذاك الرجل ومتى يتبوّل؟

أنا أحسب ، واحد ، إثنان ، عشرون ، مائة ، لا أعرف كيف يحسب المساجين . محمود يعرف أنني لا أحبّ الحساب . لكن هؤلاء أقدر على حسابهم . يجلسون على الأرض قرب الأولاد . النسوة افترشن الأرض والشمس لم تكن طيبة في هذا الوقت . البعض يضحك ، يشاغلني ويضحك . هل يجوز الضحك في السجن؟

فمي مر ، شفتي يابسة ، لساني ناشف . هذا وقت الشاي . ألتفت . أبي وعادل واقفان أمام الأبواب المغلقة . نفر من الشرطة كانوا هناك حول أبي . في الطرف الآخر الانفرادي .

لما كان أبي ينفرد بي في السطح ، فانفرد بالنمل والحشرات

والخوف . قضبان الحديد أمامي صامتة مثل حديدنا المسقف بالزجاج . هناك أطل من أعلى إلى أسفل . أنظر إلى كل شيء دفعة واحدة . أمي هي الأخرى طلعت من السجن والكلام الخشبي . وهنا لا زجاج أبيض ولا رمادي . أبواب عالية ، كوى دائرية يخترقها الطوز والذباب . لا درجات تأخذني إلى السطح العالي ، ولا سلّم ينزلني إلى الأبواب ، تفتح واحدة بعد الأخرى . زوار قليلون ينتظرون في الخلف . بنادق ، شرطة ، طول أبي ، وجهه الذي طلع هو الآخر من سجنه ، يطلع واحداً بعد الآخر . يدور أبي أمامهم ، عادل يرفع رأسه وينظر ماسكاً ذراعه .

يمد أبي يده إليهم ، يأخذ سواعدهم ، يمشي بهم قليلاً . واحد ، اثنان ، سبعة ، صاروا ثلاثة عشر . يفتحون أجفانهم قليلاً أمام الضوء ، يتحرّكون وبينهم أنفار من الحرس ، وبحركة من يد أبي تبتعد الشرطة . يطلع علبة سجائره ، يمشي ، يوزّع ، ويشعل لهب الكبريت ، ويده تلامس أصابعهم ، يأخذون نفسا عالياً ، ثم يمدون الأرجل على الأرض ، يلتفت أبي إلينا ، يبتعد قليلاً ، نقف بعيداً والأهالي ينيخون بعضهم على بعض . أحد العرفاء يصير قبالتنا .

«سيدي فتشنا العلاليك جيداً» .

بإشارة من رأسه تفرَّق الأغذية عليهم .

نمشي وراءه ، ندور إذا دار ، نقف إذا توقف . يصير قريباً ويبتعد .

بغتة ، يلتفت صوبنا : «عدولي اذهب واجلب بقية الكباب»

يهرول عادل ويعود ، الكباب ، البيض والبطاطا والخبز . و . .

العلاكة على كتفه وأبي يتمشى . بيده السيجارة ، يتحدث مع الحرس والدائرة تفرط من حوله .وحدنا أمام أولئك الرجال . لا يرفعون الرأس ، لا يخفضون اليد ، ولا يحرّكون ساكناً : «هذا كباب سيدنا العباس أرسلته الوالدة وقرأت عليه الدعاء» .

يأخذ العلاكة ، يضعها على الأرض ويمشي مسرعاً . يرفعون الرؤوس في وجه الشمس . أول مرة أرى وجوه هؤلاء . عيونهم جميلة ، أجفانهم وارمة ، أهدابهم يابسة ، شعورهم معفّرة ، أصابع أيديهم تمسك السيجارة وهي تهتز . يسعلون ، تنفرج شفاههم أخيراً ، أسنانهم صفراء ولسانهم أبيض : «شكراً . .»

نمشي وراء أبي الذي ابتعد ودخل وسط الحشد . أراه هادئاً ، رضياً لكنه بعيد . لا أدري متى قطع ذعره؟ ومن واراه بالألقاب؟ تحضر الآن كفه الأولى ، وعرينه المهول . وجهه مدهون بالعرق والتبغ واليود . هو المليك المالح على عرش هؤلاء الذي يجلسون أمامي . أبي الوسيم الذي لم ينجب غيري ولم يبغض فتاة مثلي . قالت إقبال يوماً : ذات مساء حضر والدك إليك وأنت في السرير ، دامية معروقة ، كان برازك طرياً وجديداً ، خاف لما شاهدك أول مرة . تصوّرت أنه سيحيلك إلى عظام فقط ، وتجعلينه شرطياً يقف على بابك دائماً . كان يكره بكاءك الليلي وعويلك في الظهيرة ، يكره صراخك البطيء وتنفّسك السريع . لما ينام يتوهّم أنك تضربين رأسه ، فيفر من نومه يريد ضربك ، فأصحو وأمنعه . يبكي ، تبكين ونبكي نحن الثلاثة . لم أعرف كيف أحتال عليه ولا أنت أيضاً ، كل النساء احتالت عليه إلاّ

نحن . كنت أتمدَّد قربك ، وكان يتمدَّد بعيداً عنا ،و كان صوته يطلع من بين أسنانه وهو نائم ، لن أنجب إلاّ أولاداً ، لن أزوِّج هدى مطلقاً ، سأدعها ترهن نفسها لي وحدي ، وسألازمها كي لا تكبر . . يدور وندور معه ، يشير لأحد الحرس وينظر الى ساعته . يقترب منه بانضباط ، يحييه وهو ينظر إلى أمام : «توزّعوا الآن بينهم ، الزيارة انتهت» .

أبي لا يسمع الأوامر ، ولا يطلقها . يجر قدميه بتثاقل . دقائق الوداع وصوت القبلات . الرؤوس تفتح الحلقات وتقف متباعدة ، يلتفتون ، ويمشون ، ويقفون ، يحملون الأطفال ، يلوحون بالعباءات ، يطلقون الشهقات والدعوات . الفراق يتجمّع بين الأنوف والأفواه .

الباحة تسلم على آخر الزائرات . عجوز متربة ، منحنية ، دامعة ، تمشي وتقف ، تلتفت وتدور ولا تكف عن الدعاء : «الله كريم ، ابني . . أي ، السجن ليس لك وحدك» .

تصل الباب الرئيسي ، تبصق على الأرض ، تمسح فمها بيدها وتردد : «الله كريم» .

نصير وراءها ، أبي يطلب السائق والسيارة . عادل يمسكني ونحن نلتفت إلى وراء .

الباحة خالية . أوراق مجعّدة يطيّرها الغبار حولنا ، الحصى لا يلمع ، والأرض ناشفة . الشمس تسرع للغروب ونحن نصعد السيارة . أبي يجلس في الأمام . عادل وأنا في الخلف . أجفّف العرق بيدي ، تنزلق العباءة قليلاً . أسعل وأعطس . أرفعها مجدداً إلى رأسي وأنظر إلى أمام . العريف جاسم يقودنا إلى الحضرة الشريفة .

-١٤-

فريدة تتزيّن كل يوم خلسة عن الجدّة ولا تنادي على أحد . وحدها في غرفة السطح العالي الباردة المطلية بالكآبة والضجر . الليل يدبر لها وجه العداوة والقرف . شهور على أيام . ساعات على رضوض وغيظ كتوم ، بطيء . كل يوم تسقي جمالها بالرشاوى والنعم العظيمة ولا تبرح سرير الغفلة . تريد طلوع الصرخة الأولى : امرأة ورجل .

علمتها الجدة : طاعة الدم وثواب الانتظار للبتول الجميلة . المحرمة البيضاء تحت المخدة ، تطلعها وتنظر إليها طويلاً :

«أكره هذا اللون كثيراً» .

الثوب الأسود يغطي بدنها .نراها وهي تفر بيننا .تخلعه حين ينام الجميع . ترميه على الأرض ، تدوسه ، تقف فوقه ، تبدأ بالصراخ وتكوِّم الكلمات أمامها : «عندما يأتي سيعرف من هي فريدة ، إلى أين

سيـذهب؟» . تلمس المـلابس بيدها تفـردها وتتعـرّى أمـام المرآة :
«حتى جلدي الحلو صار أسود . لا أحب الأسود ، لا أحب منير ، والله
العظيم ستحرم مني إلى يوم القيامة وسترى» .

ذلك المنير ، غـاب طويلاً . لم تحـبه ، لـكنهـا تريده الآن ، الجـدة
فقـدت سطوتـهـا وهدوءها الأول . نحلت ، هزلـت ، صـارت أنقى من
السابق ، لكـن وجههـا كان مستسلمـاً . على أكتافـها ترفع عبئاً ثقـيلاً .
تطلع من الغـرف وتمشي في المـمرات ، تروح للمطبـخ ، وتصعـد إلى
السطح . لا يتحادثان ولا يقتربان ، تـركع وتصلي ، تفتح ذراعيها ، تزخّ
الصلوات وتنـوح وحيـدة . تروح للجـامع ، تقف مع الفـقـراء ، تندس
بينهم وتخاطب الشبح :

«لمـاذا عـقـدت القران وبنيت الغـرفة واشـتريت الأغـراض؟ منيـر ،
لماذا لا تأتي؟ فـريدة ستموت وأنا وراءها ، تعـال . الله يهديك وخلصنا
من هذا الامتحان» .

أفق المـحلة يتشـكل . الجيـران والأصـحـاب ، النسـوان والشـابات ،
الأقارب والمعارف ينتظرون من وراء الحجرات : طفرة الدم .

تعلّمت فـريدة على الكلام الـطويل وحدهـا . كانت تنظـر إلى نفسـهـا
في الـمرآة ، تأخذ سكيناً طويلة وتبدأ بالمشي على رقبتها .

حاضرة للذبح : «أنا التي ستذبحك وسترى» .

نحن أمـامهـا ننتظر ولا نخـاف ، لا نكلمـها ولا تقتـرب من سطحهـا .
تلوب من غـرفـة إلى غـرفـة ، تشـعل كل الـمـصـابيح لترى كـل ثقـوب
البلاط وتترك النور حتى يطلع الفجر . الـجدة تدفعنا بقسوة عندما نريد

صعود الدرج . أول مرة أرى فظاظة وفيقة وأسكت . في كربلاء شدّت جدتي الخرق الخضراء على ضريح أبي الشهداء . أمسكت رأسينا ، عادل وأنا وأناختهما على الأرض الطاهرة قائلة :

«دعوت أمير المؤمنين ولداً لجميل وجاء عدولي . جميل قال نسميه «عادل» . كان يحب هذا الإسم كثيراً . أول ولد رزقه الله به من زوجته الأولى . بقي الناس ينادون عليه أبو عادل . ولما جئت أنت . أنا التي اخترت اسمك . قلت لعل الله يهديها لدرب الرحمن . أبوكَ قال أسماء البنات عليك . عدولي الصبور ، العاقل كان هدية سيدنا أمير المؤمنين» .

وقفت تلك الحمامة البيضاء في الحضرة الشريفة بطولها وصاحت بأعلى صوتها :

«أنادي عليك يا أبا عبد الله ترفع غمك عناّ جميعاً ، الله أكبر ، ماذا حل بنا؟ أي زين جاء جمولي ورأيته قبل أن يأخذني الله قربه» .

لما جاء جميل ، قبّلته . لم يتحدثا ، لكن الدموع كانت تغصّ بين العيون والبلاعيم .

لم تجد جدتي هناك ، كلما أفتح عيني أراها تسبح بالمسبحة وتنظر إلى الصبية المرضى ، والأطفال المعاقين . نساء متلفعات بالأسود . لا أرى إلاّ عيوناً طلعت من حوض الدموع ، نظيفة .

صدورهن أليفة ، كنت أتمنّى أن أحضن إحداهن وأنام بين ثيابها . أياديهن قوية ، أذرعتهن لا تمل من الشد على شبابيك الضريح ، يمسكن أولادهن ويشهقن بالبكاء .

رائحة الأغذية التي تطبخ في الحجرات البعيدة تسرّب هواء إلى أنوفنا فأتذكّر طعام الخالة اللذيذ . أتلمّظ شواء الكبة الكربلائية ، وأتشهّى كباب سيدنا الحسين ، تطلع رائحة زناخة العرق وأبخرة الأجساد الغامضة التي تذكرني بأم ستوري .

دعت جدتي لها ولستوري بالنجاح والهداية .

البكاء العالي ، الأنين الخفيّ ، الدعاء الكتوم الذي لا يسمع أحياناً وهو يطلع . الشهقات تتوالى على أوتار حبال كأنها صمّمت أن تخرج بهذا الشكل الفوضوي . أينما التفتُّ أصوات ، أصوات . عادل تقرفص مثل ملاك ملاحق من الأبالسة . فريدة أرسلت كل خطاباتها وارتاحت . مسحت وجهها وتركت بدنها عارياً من العباءة ، ونور خفيف يشع من نسيج لحمها . والجدة تدور وتدور مثل «مصرع» محمود . نادوا عليها : «من هي أم جميل ؟ ابنها يريدها بره» جميل أمامها وهي مفرعة . أخذته بين ذراعيها ، كانت مليكة في بكائها ، قبلته من رأسه ونزلت إلى يده . سحبها وأخذ يدها ، نزل إلى صدرها ومنتصف بطنها ، أراد أن يحملها وسط الأطفال والنسوة وهن يبتسمن وينظرن بكل عيونهن إلينا . فريدة تمشي متباطئة ، خجلة وناعسة . يقبّلها من جبينها ولا يتحدّث معها .

تسلم رأسها إليه ، تقبّله من يده وتبكي على صدره : «البقية بحياتك عيني جميل . إن شالله لا ترى مكروهاً أبداً» .

كانت إقبال بين الجميع ضريحاً . وكان منير حاضراً مثل الموت فوق الرؤوس . لا أحد سأل عن نورية والأولاد . ولا هو دعاهم إلى

بيتـه الجـديد . حركـة الأيدي بين الجـدة وجـميل ، يطلع الدنانيـر ويضعها بيدها .

. . . و . . . الشهـور تروح والأيام تنعق . جـدتي بالسـوق ، فـريدة بالسطح ، ونحن ننظف الحوش ، عادل وأنا .

بدأنا من غرفة الجدة . قلبنا الأغطية والشراشف . أول مرة أصير ربة البيت . لم أحسب حساب منير ولا فريدة إذا تسمّمت أو ماتت ، إذا حُـمل وهو سكران أو مـات وحـده . بدأت من النوافـذ مـثل أمي وأصدرت الأوامر لعادل .

«أخ لو يراني محمود الآن» .

بيدي مفاتيح كل الغرف . أفتحها وأقف أمام درجات السطح .

عادل مثل سجين فك أسره ، يسرع ويرفع الأسرّة والكراسي ، يطوي السجادة ويمسح تحتها ، ينظر في وجهي ويبتسم . بنطاله قصير ، كتفاه عـريضتـان ، طوله بغتة يرتفع ، لكن جيوبه مـا زالت تخبىء الزبيب ، وقـمر الدين . شعـر رأسه صار يذهب به إلى السـيد عـبد اللطيف الحلاق رأس كل شـهـر ، يقص منه خـصـلاً تفور بالطول والكثافة ، فيبدو غلاماً يبعثر جماله على من حوله .

هذا الأخ العـراقي الذي يخرس رعباً أمام أبي يتـغيَّـر ونحن نعـبر السدود الترابية المخربة ، نرفع بدننا وننظر للطرف الآخر من الشارع .

الكورنيش المشجّر الذي تنبجس فيه البيوت العالية بحدائق كبيرة . مـشـجـرة ، شاهقة العلو ، ونوافـذ لامـعـة على الدوام ذات ستـائر حـديدية . نقف طويلاً ونحن نشمُّ رائحـة القـداح النفّـاذة (الشبـو الليلي) ، والروز المغمس بماء دجلة الخابط .

أولادهم يلعبون في أماكن مخصّصة من الحديقة كرة الطاولة ، أو الريشة أو الطائرة ، ينزلون إلى النهر من ممر جانبي داخل بيوتهم ، يسبحون ويعودون واضعين على قاماتهم الرشيقة مناشف ناصعة البياض وفي أقدامهم صنادل جديدة على الدوام . بنات بعض هذه البيوت كن يأخذن دروساً خصوصية في عزف البيانو وتجيء باصات كبيرة لنقلهن إلى المدارس الخا صة - الراهبات - أو «فرنك عيني اليهودية» . لا ينظرن إلى خلف كثيراً ، وإذا ما أطللن إلى أمام كانت نظرتهن مزيجاً من اللامبالاة والتأفُّف لصفوف الأولاد الذين يسيرون على الأقدام ويحملون كتبهم بأكياس كتانية زهيدة الثمن ، وفي جيوبهم حلويات مغبرة ونقود قليلة يتقاسمها الأخوة والأصدقاء وهم يطلقون أصواتهم بالغناء والضحك والصفير العالي على الباصات والبيوت والعالم من حولهم . كان عادل يرقب خلوداً ويتنهد . هي المتعجرفة ، الحلوة مثل الدمى الأجنبية . إذا اختفى عادل ساعات كنت أعرف خط سيره . هناك يكون ، عرف اسمها وعدد أخوتها . يقطع لها الورد وينزل إلى جرف النهر ، يصير ملاصقاً لدارها الكبيرة تفوح منها رائحة النقود ، الأغذية والأعياد الطويلة . يضع الورد على سياج الدار ولا ينتظر أحداً .

كان يداوم هناك يومي الإثنين والخميس ، يمشي بطيئاً ، يدرس في الليل ويطيِّر طياراته عصراً ، يكتب على أكبرها اسمها ويطلقها في السماء . كان يراها مخلوقة آتية من هناك ولا وقت لديها لأبناء الأرض .

يقف أمام باص مدرستها ، يرقبها وهي تصعد وكأنها ستذهب الى السماء ، ينتقل من صف الى آخر ، يغتسل بالأسبوع مرتين وتتجمع فيالق الحزن في عينيه .

بغتة . يفتح الباب ويغلق . نلتفت ونطلق صوتاً واحداً يختنق في حلقنا : (عمو منير) رأسه الأصلع عيناه الغائرتان ، وجهه الذي ازداد سمرة واصفراراً . يسعل ، يتنحنح . كان ينظر إلى كل شيء حوله وكأنه يراه أول مرة . الخطوط السوداء ازدادت تحت عينيه ، ووراء شفتيه كلام قديم . لم ينظر الينا ولا لاحقنا . عادل لم يختف عن طريقه ، ظل ينظر اليه ، وأنا صامتة ، أمسك عادل بيدي وأقف قبالته ، عيني لم تنزل عنه ، نتبادل النظرات ، صار أقبح من السابق . شعري مبعثر ثيابي مرفوعة عن ساقي أمد يدي وأنزلها ، وجهي مغبر ، وأنا أشتم هذا المنير ، أباه ، جده ، صوته الحاد ، النافر : «أين زوجة عمي؟» .

«طلعت» .

«طلعت؟ عجب الى أين؟» .

لا ينظر إلى أعلى . آخذ عادل إلى الحمام : «اغسل ونظف جسمك زين» .

أغلق الباب على عادل ، وصوت منير : «تعالي» .

أصير أمامه ، ألبس جلد الذئب وأرى ابن آوى ، كريهاً ، منفراً ، جلس على الحصيرة في وسط الحوش ، أشعل سيجارته ورمى عود الكبريت على الأرض النظيفة ، أستغفر اللّه وأجلب له صحناً للسجاير .

«ألا ترى البيت نظيفاً ، رجعت ورجعت أوامرك ، أنت الله أرسلك غضباً علينا» .

يبدأ بالضحك البطيء الوقح ثم يعلو صوته : «والله كبرت وبدأت تصدرين الأوامر ، ماذا ، كنت تتمنين ألا أرجع؟» .

«ترجع لو ما ترجع ، أنا لا أهتم» .

«أنا رجعت من أجلكم كلكم وأنتِ أولهم ، لسانك الطويل ووقاحتك وعنادك ، أنا الذي سأربيك» .

«عندك مرتك بالبيت اصعد عليها ، طلّع صوتك هناك» .

أغيب عن طريقه وصوته اللئيم ورائي : «تعالي ، البيت نظيف وأم جميل ليست هنا ، هل كنتم بانتظاري . ها؟» .

يطلق ضحكة بها تشفٍّ ويعاود : « . . ها لماذا لا تردين؟ الى أين ذهب جدتك؟» .

«لا أدري» .

« . . . وهي؟» .

آه . . هي .

أختفي ولا أرد عليه ، أبحث عن صوت يلدغه ، القرآن يسلمني للأمان ، أرفع صوتي عالياً ، أجود معه ، أتحرَّك أمامه . أدخل غرفة وأطلع الى أخرى ، يسعل ولا يتحدّث ، يدخِّن ويشعل سيجارة من أخرى . أحضر ملابس عادل ، وصوته في الحمّام يأتي وكأنه يتسلَّق جبلاً شاهقاً .

«هدى تعالي» .

«ها» .

«سجائري خلصت» .

«أطلع أنت اشتر» .

يقوم من مكانه ، يصير قريباً مني ، يوقفني أمام باب غرفتي ، يمسك يدي ، يلوي زندي وبصوت لا يسمع يقول : «لو محمود بالباب كان طلعت . ها - كل شيء أعرف عليك ، أنت التي ستشتري السجاير والآنَ» .

«آخ . اترك يدي ، لن أشتري . ها حتى لو قتلتني من الضرب روح أنت أشتر» . «صوتك لا يعلو على صوتي . ها . تفهمين لو تريدين أفهمك أكَثر» . يلويني ، أدور معه لأفك يدي منه . وأول مرة نتلامس بهذه القوة . وأصرخ : «زين . آخ» . يترك يدي وأنا أنظر إليه ، أريد البصاق في عينيه اللتين تظللهما رموش كثيفة فيبدو وهو يتحدث كأنه نائم . يمد يده إلى جيبه ، يطلع النقود ويضعها بين يدي . يتركني بهدوء ، يمشي أمامي في الحوش . أخاف وأنا أراه في غرفتي : «واللّه داخلة بالديانة مثل زوجة عمي ، يا اللّه أمشي بسرعة» .ينظر حوله ، وجهه كريه ، عيناه كلبيتان ، امشي من أمامه وادمدم : «كان اشتريت قبل أن تأتي» .

أصل باب الحوش - أفتحه وأغلقه . أختفي في الممر وأنتظر .

ينزع سترته ، يرميها على الحصيرة ، ويتمشّى في الممر المؤدي إلى الحمام .

بلمح البصر أصعد الدرجات ، أصير قبالة فريدة وأنا ألهث : «عمة ، منير هنا» . مثل جحيم تفتح بابه ، تقوم ، وجهها يهتاج ، عيناها جاحظتان ، شفتاها يابستان ، تدفعني وتركض نازلة ، وأنا وراءها ،

صوتها يشبه صوت أبي وهو يجرّني من ضفائري على الدرجات :

«يأتي ولا يراني ، منير أفندي ، اين هو؟» .

تلتفت إليّ : «أين هو ، أبن العم الشريف الشهم ، اليوم حسابك منير ، أطلع الآن» تختض وأنا أمامها : «بنت الكلب تريدين تضحكين عليّ ، بس أنت لم تضحكي عليّ ، أين منير؟ قولي وإلاّ قتلتك بدلاً عنه» .

شعري بين يديها : «والله كان هنا قبل قليل» . تلتفت وترى السترة ، أعقاب سجائره ، تدور بعينيها عليّ وعلى الأشياء :

«أين عادل؟» .

«في الحمام» .

صار لفريدة وجه مدبّب بالشوك ، عيناها اختلط بياضهما بالدم ، لسانها نصفه يطلع إلى الخارج ، تهرول إلى الحمّام ، تفتح الباب ، تمد رأسها وأنا وراءها ، عادل يلدغ ، بيده طاسة الماء وعلى وجهه رغوة الصابون ، يدير رأسه بسرعة واضعاً الطاسة بين فخذيه :

«سمعت صوت عمك منير؟» .

«فتح الباب عليّ ، قبل قليل» .

كانت تقطر عذاباً ، صوتها الثاقب يتعقّب منيراً بين حجرات البيت ، تخرج ، تمشي إلى «الأدب الخانة» ، تقف على بابها ، تسمع صوت الابريق وهو ينزل ماء ، تضرب الباب عليه : تحرك قفلها الخارجي وتراه مقفلاً ، تصرخ بأعلى صوتها : «اطلع منير . أطلع» .

كل شيء تحوّل في ثوان إلى رعب . أرقبها ، لا أتحرّك ولا أتكلّم .

فريدة ترتّب كل الشهور وتبعثرها في صوتها الذي غلظ واشتد وشرع في نوبته . تضغط على الباب وتضربه : يجيء صوته الثقيل الساخر : «انتظري شوية . أنت مجنونة صدق» .

بين حركة الباب وجانب من صلعته ، تمدّ يدها ، وتبدأ من رأسه وعنقه . . تجرّه وتسحبه من الرباط ، ثم تدفعه للداخل وتدخل معه ، تنزل رأسه إلى المرحاض ويدفعها للخارج ، تمسكه من الخاصرة ويصيران في الممر الضيق الطويل . الأصوات تختلط والقبضات تتوالى .

«هدى ، نادي على الجيران ، تعالي أنت وعادل ، تعالوا كلكم تفرجوا على زوج عمتك» .

يفلت من بين يديها وتمسكه . ينظر إليّ وهو يكاد يقع : «أكيد عمتك جُنَّت» .

فريدة تفتح ذراعيها وصوتها : «أي مجنونة . صار لك سنة وأنا أنتظر ، كل يوم أقول اليوم يجيء ، اليوم يفتح الباب ويصعد ، هذا اليوم يوم منير» . هذا واحد من السادة . عمتي تكوّمت عليه ، تسحبه ويفلت ، تمسك كُم قميصه وتنزل به على الأرض وهو يلبط ، تجمّع الغيظ فصاحت : «حتى لو أقتلك بيدي لن أرتاح» كنت أريد أن أمد يدي وأضرب أنا الأخرى . هي تلمع وتشهق وتنثني كما في حمّام السوق . تجره إلى وسط الحوش ، تشيل المخاديد وتنزل بها عليه ، تدوسه وتضغط ، تصير فوقه وتجلس . تهذي وتهتف ، تقوم وتقعد : «أنا التي ستقتلك بيدي هذه» .

أتفرَّج ، والرجل يتحشرج ، يختنق . يداه تلويان وقدماه تضربان ، فريدة صدرها يرعد . تمسك فخذيه بقوة ومن بين أنفاسها المتلاحقة تردد : «تعالي امسكي ساقه معي» . لا أتحرَّك . تقوم وتضع المخدة على وجهه ، وتجلس على صدره ، تفتح ساقيها ، تمسك حزامه الجلدي ، تبدأ بفتح الأزرار ، ثم تنزل السروال إلى الأسفل ، وتندفع مثل معتوهة . وبلمح البصر تعريه أمامك . أنت تنظرين إلى حركة الساقين وهي ترفس وتضرب .

كل شيء أمامك الآن : بندقية الصيد ووحيد القرن .

تبصق ، تضرب ، وتنزل عليه اللكمات والسباب . تجمع يدها وتهوي بها على أعضائه ضرباً . «لا أريدك أن تموت ، حتى الموت قليل عليك» .

تضرب وتصرخ :

«إسمع منير ، أنا التي أطردك ، أطلع قبل أن أقتلك» .

تدور ، وتنفجر ، فتسقط بعيداً عنه مسممة . تبرك على الأرض ، وتشق ثوبها من الأعلى إلى الأسفل ، تلطم خديها ، تجر خصلات من شعرها . تبكي وتعول . تنفلت بغتة عليه وهو مستسلم . قدماه توقفتا ، السروال واقف بين الساقين والأرض ، وما بينهما كان يبدو مثل لحم بائت . صوت عمتك قد غرب ، تعيط ولا تسمع ، تولول ولا يطلع ، تنادي ولا أحد يرد عليها ، تكبِّر ، تضرب رقبتها وفكها ، تنزل عليه ثانية ، يدها وحدها التي تتوعَّد . كانت معروقة ، شعرها تلبَّد ، صدرها مفتوح ، نهداها يطلعان ويتحركان ثم يعودان إلى صدرها .

عادل يصير وسط الحوش مذعوراً لكنه صامت . لا يقف ولا يرى ، يمشي إلى غرفة الجدة ويدفن وجهه على السرير .

السيد منير يتحسَّس نفسه ، يسحب سرواله ويدفع الوسائد عن رأسه ، فتمشي إليه ، تضربه بقدميها على صدره وجبهته ، تقف فوق رأسه ، تبصق عليه كما لو أنها تتقيأ . صلعته منشورة بالبصاق والعرق ، الجبين المجعَّد القاسي انفرد قليلاً . يفتح عينيه ويغرقه البصاق . تدفره ثانية على بطنه وتهمهم وهي تجرني من ذراعي . نمشي الى عادل ، تلتفت ، تقفل الباب بالمفتاح وتنزل إلى الأرض ، تضرب فخذيها ، تجر شعرها ولا صوت يطلع منا جميعاً . أفكِّر بجدتي وأنا أسمع صوت الباب يفتح ويغلق ثانية .

- ١٥ -

شارعنا يقف كله أمام دكان «هوبي» القصّاب . الشائعات تضرب الجميع : «الشرطة أمسكت هوبي» .

«يقولون كان يوزع المناشير ضد الحكومة» .

«لا ، يقولون كان يسب الوصي ونوري السعيد» .

«الله يستر علينا وعلى ذريتنا . يقولون هو الذي كان وراء المظاهرة الأخيرة التي طلعت لما أمَّم عبد الناصر قناة السويس» .

كلنا طلعنا بالمظاهرة : جدتي وقفت أمام الجامع مع نسوة الطرف ، تقرأ الصلوات وترسلها للشباب وهم يمرون أمامها رافعين اللافتات : «الله يحميكم عيني ويرجعكم لأهلكم سالمين» .

تهوس ويطلع صوتها وكأنها واقفة على خط النار . «أم ستوري» تحزَّمت بالعباءة الصوف على الخاصرة ، تفرّعت وشدّت عصابتها

السوداء على رأسها وأطلقت الهلاهل . نظمت سبل الماء ، نصبت خمسة أعمدة من الخشب السميك ووضعت بينهما قدوراً وتنكات الماء الصافي ، حشت أكياساً من الجنفيص بأقراص الخبز الطالع من التنور . يمرون أمامها ، يشربون ، يهتفون ويقضمون الخبز الطازج .

السيدة رسمية هيأت عدة الإسعاف : السبرتو ، الشاش ، القطن واليود . أبو محمود استحضر أنواعاً جديدة من الأجبان ، نشرها وسط الأطباق الكبيرة وتركها في عهدة أم محمود . ارتدى (زبونه) الجديد ، المقلَّم والمقصَّب بخيوط الفضة ، شدَّ على رأسه (اليشماغ) الجديد ، وتحزَّم بالحزام الجلدي العريض . كان يضاهي متولي الجامع (الحاج عزيز) الذي وقف قربه وبينهما : أبو هاشم ، أبو مسعود ، أبو ايمان ، أبو غانم ومحمد البناء . أم عزيز العمياء جلبت أطباق العيد الكبيرة ، نثرت عليها الحلويات وأطلقت صوتها : «اليوم كل شيء بلاش للشبان» .

كلهم طلعوا : الصفارون ، النجارون ، الحدادون ، البناؤون . صوت الخالة نجية المشروخ يدفع حشود النسوة والأطفال أمامها : «عيني افتحوا الطريق شوية أمامي ، أنا مريضة وعندي ضيق نفس» .

بهيجة ، لائقة والخالة نعيمة يطلقن أصواتهن بالدعاء : «اللهم صلِّ على الرسول محمد ، أحمهم يا إلهي وخلهم ذخراً لنا» .

العمة فريدة صعدت للسَطح العالي ووقفت هناك . صوتها ممحوّ ووجهها لم يرمَّم . تصفِّق بيدها وتطلق همهمات . حين يلوح رأس المظاهرة في مفرق رأس الحواش مروراً بشارع الإمام الأعظم تقفز وتنطّ ، تهرول وتصير وسط الحشد . ثيابها بيضاء تغطي رأسها بغطاء

ملون وترفض ارتداء العباءة في هذا اليوم . تقف أمام أبي محمود الذي أمسك بأيادي أولاد وبنات المحلة فجعلنا حلقة واحدة .

عادل لا يختار رفيقاً ولا مكاناً ، يمشي وسطنا كأنه منوَّم . ستوري ونزار يهتفان ويضحكان ، يتدفَّق الحماس إلى هاشم فيلعب بصوته ، يريد إطلاقه كله . محمود بعيد ناء ، يتصبب عرقاً . صوته يطلع مثل سعال جاف ومرتبك . يقولون : «صار شيوعياً» .

لم أفهم معنى هذه الكلمة ، إلاّ أنني سمعتها وهي تطلق كما لو أن أبي يحمل مسدسه ويركض ورائي . تغيَّر محمود ، وجهه بدأ قاسياً ، سحنته تغيَّرت ، شاربه الغض عثر على مكانه ، حركته السريعة دخلها هدوء غريب ، خالف وتبدّل ، غاب وتوتّر . إذا وقف قربي جلب الكلمات الكبيرة وأسماء الكتب السميكة .

كان يأتي بصمت ويطلع بسرية ، يمر على الطرف ونحن نيام . راحت طمأنينة العائلة الأولى ، وذلك الكرم المفاجىء صار منظّماً . نظم نظراته عليك ، فإذا استقرت على عينيك كانت تشبه الوعيد . إذا كنت مع فردوس دفعت الكلام صوبه ، وإذا بقيت وحدك كنت تضربين نفسك باسمه . الجميع في المحلة يعض على لسانه ويخاف عليه : الكبار ، رجال العوائل ، أولياء الأمور ، يعرفون أن : «الشغل بالسياسة ورطة» ، لكنهم كانوا يعرفون القليل ويسكتون .

بدأ محمود يغيب عن المدرسة والبيت ، الحي والجيران ، أصدقاء الطرف الأول وأنت .

يوم أعطاك أول منشور خفت ، ارتجفت ، تلعثمت ، أول منشور يشبه أول قبلة محرّمة . توقّفت عن الحراك . معدتي انقلبت عن آخرها ، وكاد يُغمى عليّ ، كنت أعرف أن في داخله ما يشبه اللغم ، إذا أمسكته سيطيش بيدي ورأسي . قرأت ولم تجدي اسم عبد الناصر إلاّ مرة واحدة وبإهمال .

تبعثرت ، وتوقفت عن القراءة ، أعدته له وأنا صامتة ، هو حذف نفسه من أمامي ومهَّد لي وساوس القراءة فقط . لم أفهم كثيراً ، لم أفهم قليلاً .

كلنا ناصريون . جدتي حين تسمع صوته كانت تردد : «لا يهم إن كان أنفه كبيراً ، لكن صوته كأني أعرفه من قبل ، يشبه صوت أبي جميل» .

أبي كان يدخل غرفتي حين يأتي من كربلاء ، يفتح الراديو على إذاعة صوت العرب ، يضع قدحاً رابعاً أمامه ، يضرب قدحاً بآخر وهو يسمعه قائلاً :

«يا إلهي خلصنا على يده من هذا الموت الأسود» .

رسمية كانت تحتفظ بصورته في حقيبة الشغل الصغيرة . كلما تفتح الحقيبة تنظر إليه . تقبّله وتعيده بين القطن والسبرتو .

أم محمود ، أبو محمود ، أم عزيز العمياء كانت تسألنا قائلة :

«يا ريت أفتح عيني حتى أراه بس» .

فريدة مثل الزئبق . إذا جاء اسمه تنتبه وتشرع في الحماس ، وإذا شتمه أحد تسكت .

ونحن ندخل هذا الحشد ، يأخذنا اسمه وصوته ، إذا انقطع التيار الكهربائي نعيد خطبه في الظلام ، عادل وأنا على أهل البيت . والوجوه ، القامات ، فوق السطوح ومن وراء الشبابيك يهتفون ويرمون علينا الحلويات والورق الأخضر . صوتنا يطلع ونراه فتياً دافئاً . ثم يفلت إلى أعالي السماء .

بغداد كلها دخلت العصيان ذلك اليوم . المدن ، القرى ، المقاهي أقفلت ، الدكاكين أغلقت ، الجامعات كتبت شعاراتها ورفعها الطلبة باللون الأخضر والأبيض والأحمر . الثانويات خرجت أولى وجباتها ، كل وجبة كانت تحمي ظهر من يليها ، وجوه الشرطة ، الهراوات والعصي كانت تريد المزيد من هذه الأبدان والرؤوس . أبي أخذ إجازة وحضر إلى بغداد ، فقال لمديره ، أمي مريضة . خلع ملابسه الرسمية واندس مع الحشد ، لم أره ولا أحد ميّزه ، إلاّ أن وفيقة رأته وابتسمت .

شارع الإمام الأعظم ، كم ركضت وقفزت ، هربت ومشيت فوقه وحوله ، صار بمقدوري أن أراه الآن وهو يدرّبني على الطيران ، جاء عبد الناصر وتسلّل بين حبالنا الصوتية فأطلق جميع الأسرار ، دخلنا الفوحان وبدأنا الهتاف : اشتموا الانكليز ، إلعنوا الرجعية ، سبّوا الاستعمار والوصي ، قولوا فلسطين عربية ، فلتسقط الصهيونية . اقطعوا شريط الثأثأة ، نازلوا بالصدور العارية ، بالرقاب الصغيرة والكبيرة ، والياقات التي اهترأت من الغسيل ، وادخلوا طاعته .

كان صوته يشبه التقوى ووجه جدتي ، الكل يهتف بالسقوط : سقوط المعاهدات ، سقوط الطغاة ، وأنتم حفظتم كل شيء بسرعة

خارقة ، لا أحد يصب غضبه على الملك العراقي ، كان فيصل الثاني يختفي عن الهتاف ، ويمكث بعيداً عن الأصوات ، كانت الخالات ، العمات ، ونسوان الطرف يحببنه :

«أي عيني بعده صغير ، كل المصائب جاءت من خاله عبد الاله والانكليز» .

صورة الملك العراقي كانت تخدع الصغار والكبار . حلو ، حزين ، كئيب ، وعاثر الحظ أيضاً .

الفتيات يحلمن به ، والنسوة يخفن عليه من خطط خاله . فلا توجه كلمة له ، ولا يقام عرس من أجله . أخذ عبد الناصر كل المكتوب على اللافتات ، وجاء إلينا ، إذا عطس في القاهرة طلع المعتقلون إلى باحات السجون وكتبوا اسمه بالفحم والأظافر على الجدران المقشرة .

إذا خطب في قناة السويس ، كانت الاذاعات العربية تقسم البيوت إلى ناصري ورجعي ، ومعسكر الذين لا يعرفون لا هذا ولا ذاك ، -كان يفر بالخمرة وموجة خطاباته- ، ويتلقى الضرب على الظهور . تغلق المحلات ، وتقلب البيوت للبحث عن راديو مفتوح على إذاعة صوت العرب ، أو منشور مطمور تحت الحصران العتيقة .

الطرف ما زال مخضوضاً . دكان «هوبي» ظل مغلقاً سبعة أشهر . نمرُّ عليه صباحاً ونلقي عليه تحية الصباح . نعود ظهراً ونلمسه بالأيدي . الكلاب والقطط كانت تلحس ثقوبه وتنضوي تحت لسان دكته الحجرية . الرجل عازب ، أمه وأخته تنوحان عليه ، والحي صار

يشبه وجهاً محفوراً بالأسيد . أبو ايمان يعود ليلاً محمولاً على الأكتاف ، يسمع الجميع صراخه ، ضربه وشتائمه . رسمية لا تخترع أي شيء ، تلقي تحية الصباح على أبي محمود الذي صار وجهه كالليمونة المعصورة . رأسه مفرع ووجهه هرم فجأة ، ومحمود غائب عن الحي والمدرسة . إذا مرَّ فبعد حلول الظلام ، وإذا تمهَّل فهو لا يلقي السلام . انتقل إلى بيت عمه في منطقة «الفضل» .

بقيت لك فردوس ، عادل ، نزار ، هاشم ، وستوري . لا تلعبون بالخرز ولا تشيدون بيوت الطين ، (مصرع) محمود حفر أرضاً وهجر أخرى . كنت تتصورين أنك وضعت خارج الأرقام ، وأنك سترينه طوال حياتك ، داخل البيت وفوق السطوح العالية . كنت تفتحين الرأس وتنحدرين إلى الخلايا ، تسوّين له كل الطرق ، كي يستقر هناك . تبتسمين وهو يشيل معك آثار الأيدي ، لكمات الوالد وفظاظة الطريق . لكن مصرع محمود أدخلته الجهة الأخرى من الكبد ، دثّرته بقطعة قماش سميكة ، نظيفة ، شددت عليه حبل الغسيل الأول ، وحدَّدت مكان الإقامة ، المحفوظة في صندوق الدم . نشرت خرز الصبا الملوَّن البرَّاق ، المسروق والمذهب باللمسات والأشواق ووفود الدموع ، الطين الإسفنجي الذي هرس أقدامنا ونحن نلعب ، ونحن نخوض المنحدرات ، السواقي . والساعات الأولى لأول لقاء . . وضغط على القفل وأسرعت أخبئه بين فصول السنة التي لا تعد . إذا لم يتذكّره أحد أطلقته إلى براري البدن . من ذلك الباب كان محمود نادراً ما يجيء ، وكانت فردوس هي الأخرى تفر من بين

يدي ، ترفع قبضتها التي كبرت وتورّمت الى وجهي قائلة : «نحن أيضاً سننتقل قرب بيت عمي بالفضل ، هذا الحي ستقطعه الحكومة ، أمي تبحث لنا عن دار جديد» .

لم تعي الكلام جيداً ، أنفك لم يشمَّ الرائحة الجديدة ، إذا سعلت طلع غبار وقشور شارعك مَن الشعيرات المخاطية . وإذا وقفت بانتظار عادل على باب المدرسة دخلت معه حلبة السباق . عادل يمشي مثل أرنب بين شقوق الأزقة والحواري ، يفرغ صمته الذي انقطع إليه منذ ليلة الحمّام . . . انقسم على نفسه ومشى مع كل قسم يريد المزيد من الانشطار . إذا طلع من المدرسة يفلت من بين يدي وتسبقه قامته إلى (خلود) وضفافها النهرية . هناك كان يستدير للشارع والحي المدرسة ، الحجارة والناس . يمد ساقيه للنهر وتعبث يداه بالرمل الذي يتنفس بين أقدامه ، ناعماً ، رطباً يصنع وجوهاً وأرقاماً وملامح . ينظر إلى دجلة ويرمي حصاه إلى مائدة الماء ، ولا ينظر إلى قصرها . كان النظر لا ينفعه كثيراً فترك القصر لكائنته وأخذ صورتها إلى روحه . إذا هبَّ الهواء على صدره يكتب اسمها ويطيّره في الهواء ، وإذا جاءته الموجة ، بللت غضاريفه التي شقت لنفسها لحماً وعضلات . كل ما يلمسه يرميه ، وكل ما يرميه لا يتوقع منه إلاَّ الغياب . إذا أخذته الى غرفتي بقي جالساً ، إذا خرجت منها بقي في مكانه ، إذا وضعنا الطعام أكل ، واذا جاع يلازم لسانه فمه . أفتح له الكتب ، أقرأ ويعيد ورائي ، لا يغلط ، لا يتأفّف ولا يضجر . يدور على نجمته الوحيدة . ولا يلفظ اسمها .

تلك الخلود لا تطلع ولا تغيب ، تبقى في الممرات الهوائية لدارها ، تصعد إلى السطح العالي المبرقش بالطابوق الزاهي ، ترميه من بعيد بورقة مطوية فارغة ، بعيدان من أعشاش الطيور . بحصى رقيق لا يجرح ، تنزل إلى الحديقة وتتعربش السياج ، تقفز وتنط ، تمد رأسها وتختبىء وسط شتلات الأوراد ، تطلق ضحكتها الذهبية وترمي عليه أنواعاً من أزهار لم نشهدها من قبل . يتناثر الورد على الحجارة والحصى والرمل ويتطاير إلى الأمواج . ولا يقوم عادل بلمها . لا يلتفت ولا يضرب لها سلاماً ، لا يرفع أصبعاً ولا ينكس رأساً ، فقط ينظر إلى الطرف الآخر من الشاطىء ، إلى الصيادين وشباكهم العتيقة وشخاتيرهم المتآكلة ، وخلود تدوس قصور رمله ، تجهز على الملامح والآمال . تصير وراءه ، بيدها الكرة البيضاء المضلعة ، وترتدي ثياباً بيضاء وصندلاً خفيفاً ، محلولة الشعر وبيدها الشرائط الصفراء الناصعة الجديدة . سريعة ، صاخبة ، حلوة مثل حمامة مدهونة بالدلال ، كل شيء فيها صغير ، دائرة وجهها ، عيناها ، أنفها ، حاجباها ، شفتاها الرقيقتان مزهرتان ضاحكتان . تمشي مثل جندي ، خطواتها مباغتة وحركاتها عنيفة . تقفز وراء الكرة ، تلعب قريباً من النهر ومحاذية لعادل . ترقص وتطير في الهواء . لحمها مموج وطري ، نسيجها اللحمي بلون الزهر ، وعظامها محشوة بالخضار والترف . تقع قرب عادل وتقف وراء ظهره . لا يتحرَّك . تضرب الكرة وتفتح حفراً صغيرة ، تلامسه ، تمرِّر الكرة على رأسه . أنت واقفة على مقربة منهما . تمشين ، تتمهّلين ولا تنظرين صوبهما :

«اسمي خلود وأنت؟»

لا يلتفت : «أعرف» .

«أنت بأي صف؟»

«نجحت للسادس»

«وأنا أيضاً»

تأخذ الكرة بيدها وتقف أمامه . أول مرة يراها : «تعرف تضفر الشعر؟» تضع بيده الشرائط وتدير ظهرها له : «يالله أضفر شعري» . لم يبق من عادل إلا الذراعان . التفت إليها وصار يخوض في الخصل ، التهبت يداه وهو يلمسها ، يفرقها ، يمشّطها بأصابعه ، يغمض عينيه والعرق يزينه . قدماه ترتجفان ويداه تهتزان ، ينشر شعرها على ظهرها ، يعبث به ، ينثره إلى أمام ويقوم مهرولاً . صوتها يقرصه من ظهره ويحصره بين الضفاف : «خواف ، خواف»

عادل يركض ، يسقط ويقوم ، قدماه لا تقفان على الرمل ، ذراعاه تفرّان من الملامسة . الطين يلطخ ثيابه وركبتيه وكفيه . يركض ، يصرخ ، يضحك ولا يختفي . الشاطىء ينظم له الخطوات . لا أحد معنا نحن الثلاثة . خلود تركض وراءه ، تقف وتنتظر وسط الحصى والحجر ، تتدحرج وتسقط أمامه . تقوم ويشق صوتها أذني : «خواف ، خواف» .

تلتقط الحصى والحجارة الكبيرة وترميها في الهواء عليه ، علي ، وعلى دارها . عادل يجري ، يتذكّر صلعة منير ، ودم يدي ، وبصاق عمتي . يركض ويدفن رأسه في الهواء . يتباريان في الركض ، أول مرة

يتعارفان يجريان كل في اتجاه . أول هذا النهر قطرة الدم التي تحركت وأطلقت نواحها في دائرة قطرها جامع أبي حنيفة حتى السدة الترابية . حتى الخطوات الفسفورية لخلود الصاخبة ، صار عادل بعيداً مثل نجمة الجوزاء .

أخفض رأسي وخلود أمامي تلهث تحت سماء بغداد اللامعة وموج دجلة المكسَّر أمامنا : «سيرجع بعد قليل لا تخافي» .

- ١٦ -

لننسَ الخوف ونستلق بعيداً عنه . إذا توارى في الظهيرة يقترحه الليل كآخر الحرس علىَ حدود أجفاننا طاغية . يلاحق عادل الذي كان أقلّنا شراً ، وجدتي التي فسحت له كل الطريق ، منير الذي مسحه بمنديله الأبيض النظيف فخرج واختفى نهائياً . وأبي الذي كان يقطر على ثيابه الرسمية . فريدة وحدها كانت تبسطه أمامها ، لا تحدّثه ولا تسخر منه . مشت إلى خوفها بعضلات طبيعية ووجدت له في الأخير عملاً : أن تدع منيراً يترنح والباقون يتفرجون . بقيت عمتي البتول ، ترفع اللقب وتنظر إليه ليلاً ونهاراً . نزعت الثوب الأسود وغسلت جلدها المغبر وسرحت بقميص نوم الغواية فعاد لوجهها جنونه .

بدأت تضربنا ، عادل وأنا ، والجدة توافق ، تريدها فقط : طاهرة الذيل . فانطلق صوتها مثل بوق بعد أشهر الخرس الطويلة . دخلت

الحمام وعاطت من هناك ، صرخت وأفرغت صوتها علينا . طلعت شبه عارية ، وقفت وسط الحوش تهتف والجدة واقفة أمامها تقرأ وتنفخ ، تلمسها وتشدّها بذراعيها :

«يمه رجع صوتي تسمعين لو لا؟»

تعاود : «هداوي عدولي تعالوا اسمعوا ، يمه أخاف يرجع ينقطع؟» أخاف الكلام الكثير يخلص الصوت؟ يمكن لازم اقتصد شوية ، أصير مثلك ، ها . . يمه أخاف يرجع يغيب؟»

تغيَّرت فريدة ، صوتها كان شبكة من الدبابيس الغليظة الرأس ، وصمتها هو الآخر كان ينقضّ علينا . أخذت أسلحة أبي كلها وغمستها في لحومنا وأبداننا فعدنا لذكرى جميل نلهث . تضربنا فنبكي جميعاً نحن الأربعة .

الجدة تمسك رأسها : (على مهلك عيني فريدة ، رجع صوتك ولن يختفي . بنتي اسم الله عليك ، البسي هدومك أخاف تتمرضين) .

«لا ،لا ، أريد أطلع للدرب ، أمشي بالشوارع ، أرى الجيران ، أدور وأغني وأسلّم على كل واحد . أريد أسمع صوتي من جديد اخاف كذب»

أنت واقفة بعيداً : «ما بك هل تسمعين صوتي؟ لا تخافي ، لن أضربك بعد اليوم . هذا صوتي قولي هداوي لو أني جننت؟»

إذا بدأت بالشتيمة أو القهقهة ، إذا سبَّت الأولين والآخرين ، إذا قست أو هجرت فلا شيء سيجنبنا عنفها . أبي جاء عدة مرات معصوراً ، مصفراً وعتيقاً . ثيابه باهتة ، قميصه مجعَّد ، بوطه وسخ ،

وجهه شاحب حزين وغير حليق ، كأنه طلع من كفن . لم يصرخ ويشتم . لم يضرب ويعذّب . سُرق ذلك الجميل مرة واحدة فازداد خوفنا . إذا سكتنا لا يرتاح ، واذا مشينا اختفى عن طريقنا . إذا وقفنا أمامه يتسرَّب نظره إلى الأرض فدخل في طاعة الموجودات والأشياء جميعاً . إذا دخل غرفته الأولى وقف في الوسط يلوب . يمس القرآن ويقف أمامه طويلاً . يفتح الدولاب ، يلمس ثيابه الأولى ولا يلتفت إلى المرآة . كانت عيناه مقفرتين وكأنهما استنفذتا البغض والغضب . لم يأخذ عادلاً بين ذراعيه ، ولم يناد على أيٍّ واحد منا . لم يكن رقيقاً ، لكنه كان منكسراً وهادئاً . صارت له ذرية يسمع توسلاتها وصراخها : سعد ورعد وعلي . ونجمة جديدة ، مذهبة يريدها على كتفه تهدي كربه وتعلق على كتفه ، فينتقل إلى بغداد مديراً مهيباً . ظل ينتظرها شهوراً وشهوراً ، زائغ البصر ومهدَّداً . ووفيقة تحشد له الابتهالات والابتسامات ، لكنه يبتعد ، فنخاف أكثر .

أرسلت عليه الجدة فلم يحضر حالاً . إذا نزل بغداد يأتي ويخرج ليلاً . هذه المرة كان ينصت لصوت وفيقة الذابل :

«اسمع زين أبو عادل . هذا مو وقت العتاب . اختك لازم تتطلّق . المحاكم تعرف مصائبها ونحن لا نحب الفضائح وكل ما تقوله يصير» «ويعد .»

« أرسلت لك إنذار الحكومة على هذا الحوش . يريدون قطع الشارع والحي كله . أنا وجدت بيتاً بـ(الصليخ) قرب بيت خالاتك ، عتيق لكنه رخيص ويراد له هدم من الأول . الحكومة ستعطينا فلوس

ولازم أنت تساعدنا شوية . . ها عيني جمولي؟ أنا أعرف وضعك . النجمة الجديدة ستأخذها . خلي كل شيء عليّ ، أمك إذا قالت تفعل»

يرفع رأسه إليها وبصوت لا يكاد يسمع : «صدق يمه؟»

«ترفيعك تأخر سنة ونصفاً وأصحابك صاروا مدراء شرطة والدنيا تغيّرت . وأنت لازم تتغيّر . جميل اترك السكر والشتائم . كيف تترفع لمدير وأنت كل يوم تشتم المدير والوزير ، تعربد وتضرب هذا وذاك؟»

تصمت قليلاً وتنظر إليه :

«قم الآن لنرى البيت الجديد وبعدين الله يفرجها»

لم أسمع بقية الكلام . طلعت للشارع وعادل لحق بي . ولأول مرة أسمع صوته وقد غلظ :

«صدق هداوي راح نتحول من هذا الحوش؟»

لا أردّ . يدي بيده نمشي ببطء وسط الناس . كل شيء في مكانه . رائحة الطبخ تدخل أنفي وأصوات النسوة وهن يرمين ماء الغسيل الوسخ أمامنا . نمشي في ممرات الطين ، ندوس الوحل والقشور . هاشم الأحول أمام دراجة عتيقة يمشي بها يحاول ركوبها فيقع ، ألتفت عنه وهو أيضاً . نقف أمام كل دكة ، أحسبها ولا أغلط . ننظر إلى ثقوب الستائر ، أضربها بيد وأمشي . كل الساكنين يثرثرون ويصرخون . أعمدة الكهرباء الرصاصية أسماؤنا محفورة هناك . مواسير المياه صدئة ، كانت تنقط ماء يسيح كالدموع .

الخبّاز محله مقفل . ابو محمود يبيع وهو راكد ، فتات الجبن مبعثر في أسفل الأطباق وقد تكوَّم عليه الذباب . لا يكشّه ولا يغطّيه بسعف النخيل الذي اصفر وذبل وسقط الباقي على الأرض . لا يرفع رأسه إلى رسمية التي ما زالت تترنَّح من الضرب . تخز الابر في الفخاذ والأيدي . نمر على دارها ويفوح عبق السبرتو والدم المخثر .

أرى ستوري ونزار ، انكّس رأسي ، ينظران بصمت . محمود ما زال غائباً . الصفوف لا تزال طويلة أمام دكان «هوبي» يبيع بضجر ، لا يغنّي ولا يمرح . بيت الجد الكبير تتناثر حصاه وطابوقه أول البيوت .

ألمس حيطان البيوت ، ثقوب الزوايا وفتات التراب . أتشبّث بالرمل السخي وتمشي الأحلام للبالوعات . ننوح ونتذكر الطرقات بالعنف . نبكي ونطمئن أذرعنا ، أن هذا الضجيج دفء ، وكل هذا الغبار ورد .

«ساكتة دائماً . إلى أين سنذهب؟ صار بيتنا بعيداً جداً؟»

«إذا خفت ارجع ، أنا أريد أمشي بعد» .

«لا مو خايف ، بس أريد أبكي وما أقدر»

قالت وفيقة : «خلصوا الدموع بالسطح»

أم عزيز العمياء تلملم طبقها الرخيص ، تحسب الفلوس وتشدّها بصرة وتدفنها في عبّها ، أبو مسعود الصباغ يتذكّر أنه نسي ضوء الدكان ، يفتح الباب ويطفىء النور ، يلتفت صوبنا وأنظر إليه . أول مرة أراه مهيباً ، جميلاً : «مرحبا عمو»

«هلا ولدي هلا» .

تريدين الارتماء على صدره والنحيب بين أذياله . يلمع القفل الكبير في باب دكانه وتلمع عيوننا :

«هداوي إلى أين سنذهب؟ أنا لم أتعب ، بس قولي هل سنظل نمشي؟»

إمش عادل . قلّب بين يديك الزوار الجدد : الشك والندم والرفاق المتأَخرين . الكل يمشي ، ينام ، يغمض جفنيه ، يرمّم بدنه وأنت وحدك الخائن .

امش ولا تخف من صوت المؤذّن ، ولا من أحاديث الصداقة المنسية . لا تتنهَّد ولا تسرع . ابق جميلاً وساكتاً . ابق مبتلاً ومبتلياً واسمع وقع طيور ستوري في هذا الفضاء المدمى . ابسط يديك وشم الطوز في مساءات الربيع وأنت تعبىء جيوبك بـ (القداح) وترميه على دار خلود . ابتسم عادل إذ صرخ الحجر المذهب بالأحلام ، إذا كذب الأسمنت المغمَّس بالأنين . إذا ضجر البلاط المطوي بالحمى والخوف والألم . لا تعتذر عادل . وفيقة قالت يوماً : «كلنا مرضى» الكتب مريضة ، المنضدة والمحبة .

لا تنحن عادل ولا تستدر ، ابق في مكانك . الدنيا قصيرة والساعة هنا صارت موحشة . قهقه عادل من أبيك اللائب وأمك الناقصة ، جدتك الحرة وعمتك الإبليسة ، وأختك التي لم تحبّك وحدك .

نقف أمام السدة الترابية ونشير لدجلة المتشائم ودار خلود وراءنا . نرقب كل الحاضرين : فردوس ما عادت تلقاك . هي التي تركتك ، كل الذين أحببتهم تركوني . وكل ذلك الوقت الذي أقفل راجعاً إلى مكانه ، تجاوز ثوبي القديم ودمامتي وقال إلى هنا فقط ، لا تلتفتوا ورائي ولا تنظروا إليّ .

دجلة الداكن المتهكّم ، لا أفعل ببساطة أي شيء أمامه . كنت متوحشة وأشتمه ببذاءة ، لكني أدير رأسي لأبي . أعرف الأبوة وعلى الفور يصبح أبي ثميناً . في شارعنا وحده أبي كان حقيقياً . لم يلفق ، لم يكذب ، لم يمتلك ولم يتذكر .

تعال أبي أمامي لأحضنك ، جفِّف دموعي براحتيك ، امسح رأسي ، مشِّط شعري وعرقي . تعال أدخلني فضاءك وسلّمني أدواتك التي ضربت بها يوماً . اضرب أبي وافحص بدني ، اضرب وشد أسلاك الكهرباء . اضرب وخيِّط الدمامل ، اضرب واترك علامتك على لحمي ووجهي . اضرب وسوف أطيعك قليلاً . يداهمنا الحصى وشباك الصيادين . تداهمنا البيوت البعيدة المحشوة بالكذب ، لكنها تبدو فتية وحلوة .

عرفت الكذب مبكراً . كنت أكذب كما لو أنني أغسل وجهي ، يلتهمني الكذب فأحفظه عن ظهر قلب . في الشارع لا نفحص الصدق ولا نوسع له الكبد . لا نصدق إلاّ في الخصام والمرض والفشل ، وحين يتجمع صدقنا كنا نتواعد على غسله من أفواهنا .

فبعد ستة أعوام أو ستة أشهر احملي الفؤوس وقطعي اللحم ولا تصرخي أو تقاومي . ابدأي منذ الآن بالفراق ، أما الوداع فلا تتذكريه .

اخذونا للدار الجديدة . لم تفحصي أي شيء . لا غرفة الضيوف ولا ضيوف هذا الوجع ، ولا الحديقة الصغيرة الميتة . صمتت وبصقت على الأرض . كان الشارع مشجراً بطرز مغايرة عن هنا . قالت الجدة «هنا ستكبرون مجدداً»

قال عادل : «لكني لا أعرف احداً أكبر معه»
ردَّت الجدة : «هنا ستكون غير شكل»
قالت فريدة : «لكن السياج واطىء»
قال أبي : «سنرفعه»
أم محمود تلبط : «دارنا الجديدة أكبر . ستكون لمحمود غرفة ولفردوس أيضاً . غرفة للضيوف وجيرة جديدة»
تتنهَّد ، تسعل وتضيف : «مدرسة الولد قريبة ومحمود راح يتخرج من الثانوية هذه السنة»

فردوس انكمشت ، بعدت ، قست . لا تأتي ولا تتحدث . أنت التي ذهبت إليها . وكما في أول لقاء ، كما في أول فراق . لم تتحادثا . لم تنظري إليها ولا هي أيضاً . دخلتما في السكوت . لم تتلامسا . الحقائب حاضرة والبيت لا أعرفه . غرفة محمود وفردوس كأنها دخلت المسلخ . كل شيء مربوط ، الفرش والأغطية . السجاد وأدوات المطبخ . لا تنسحبي ، لا تبكي ولا تضحكي :

«صحيح لا أرى فردوس ولا أسمع صوتها بعد؟»

حامضة كنت مثل خل مدوِّد . لا أقدِّم قدمي ولا أرفع يدي ، ولا أريد أن أرى هذا الذي أمامي . أقترب منها وهي واقفة أمامي . رأسها مرفوع وكأنها هزمتني . أمسكها من الذراعين ، أهزّها لا تهتز ، أنكِّس رأسي وأنظر إلى ساقيها . كانت على وشك السقوط ، ألمسها ، تكابر ثم تتدافع الحقوق والدموع . بلا كلام كنا نستعجل الوقت أن يخلص :
«أمي تعرف بيتكم الجديد وعمتك تعرف بيتنا الجديد»

«سلّمي على محمود . . ها . . لاتقولي له أي شيء»

حتى الدموع لم تطلع فعرفت لها طرقاً فسكتت .

لم أبق طويلاً . إذا أخذوا الحقائب ، إذا أخذوا الأحلام ، إذا أخذوا كل الشوارع فهي الوحيدة التي ستتسلط عليك . أغلق الباب ورائي واخرج .

ذهبت إلى كل واحد في داره وقلت لجدتي :

«لن نرحل إلاّ بعد أن يرحل الجميع»

في بيتنا كل شيء يرزم . البلبلة وغضاريف الدم . تصعدين السطح وتهاجمين هذا الكون . تضعين في الصناديق الخشبية إرث الزفاف . تبطئين ، تسعلين ولا تبكين . تنظرين إلى هذا المتروك بين يديك . بيوت النمل ومغارات الدود ، مخاط العناكب السوداء والرصاصية ، الجراد الميت وطيور ستوري لا أثر لها في السماء .

أبي أغدق وعطف ، حنٌّ ودلَّل . لا تقتل المخيلة الأب الأول ، ولا ينتظر الحلم هذا السيد الشريف . طلّق أخته من إبن عمها ووقف أمام العمال يبني أمن الجميع . لم تعرفيه على هذا الوهن ، وعلى ذلك الحال كانت ارواحنا تلوب أكثر من السابق .

كل أسبوع يأخذوننا للبيت الجديد . أشكال البيوت هناك واحدة : بطابقين . الألوان زاهية من الخارج ، النوافذ لامعة . الأولاد يلبسون السراويل الطويلة والقمصان النظيفة . البنات كلهن يمشين بأقدام سليمة ، لم أر أعرج في طريقي ، ولا أحول مثل هاشم . لم أقرأ على سياجات البيوت لقب ممرضة مكتوباً بالفحم الأسود ، ولا دكة

حجرية . المداخل مسطحة ، الكراجات واسعة ، الحدائق تدرجت بالورد وأشجار البرتقال والنارنج . كل دار معزولة عن الأخرى بسياج مصبوغ بالأبيض والأزرق الفاتح . الستائر من الخارج تبدو سميكة جداً فلا أرى وراءها أحداً .

عندما نعود في المساء ننام فوراً . أمشي في نومي حين يهدأ الجميع . أفتح حنفيات الماء وأجمع صوابين بغداد لأغسل الالسن والأمعاء . أنسى الكلام وأبتلع فضلاته . أهتز وأضرب الأرض بقدمي ، ومحمود وأنا نأكل الخبز الحارّ الطالع من الفرن . نقسمه إلى قسمين وننظر إلى بعضنا بلا خوف . عندما نرى الطائرة في السماء نضحك ونضرب بعضنا بعضاً . كان وجه محمود ينبثق في وجهي وهو يقول : «لما نكبر هداوي لن نضرب أولادنا ، لن نجر شعورهم ولن ندعهم يهربون ظهراً للشط . سنذهب ونسبح معهم . نركب القطارات ومن يدري يمكن نركب هذه الطائرة . ويمكن أن لا نرى بعضنا كثيراً ، هذا لا يهم ، سأراك حين أكبر ، أنتظر أخبارك من بعيد ويمكن أن لا نرى بعضنا ، لا تخافي فلن أتغيَّر»

أتعلَّم تهجي هذه العبارة -لن أتغير- ولا تخافي ، كل أيام الأسبوع ، فتدخلين الساحة مع المتسابقين . الرايات نظيفة من الكتابة وأنت تركضين في الساحات العامة . لا تسمعين الأوامر ، تقومين وتقعين ، تطلعين من المجموع ، صفراً ، كسراً . ذهب محمود من أول جولة ، لم يقل لك صباح الخير ولا تصبحين عليه ، وما بين الصباح والخير هذه الموجة . لا تركبيها حتى يطلع الرمل ، لا تصادقيها حتى يطلع

الجميع معك . اذهبي في الاتجاه المعاكس وكفّي عن الندب . ما تبحثين عنه تفارقينه ، وكل ما تلمسينه يطير . كذب الجيران عليك . فذهبت إلى السيدة رسمية ، أبي مسعود ، أم ستوري ، أبي هاشم وأم عزيز . استدرت على طول تلك الدائرة من الطرف . طلعت إلى تلك الساحة الشاسعة ، قفزت بين التراب والتمر الساقط ، رفعت يدي إلى النخلات ، لمست الشجر الضاحك والسعف العزيز ، ولوَّحت بيدي لعذق التمر الذهبي . لم أر أحداً أعرفه . الجميع رحل بعيداً . لا نصيحة ملولة ولا تهديد ثقيل ، لا عجائب تطلع من صندوق الدنيا ولا غرائب تمد رأسها من الصرر العتيقة . فلا مفتاح تركوا لك ، ولا حكمة تعلقينها حلقاً بأذنك . فعلى صدر من سترتمين؟ ومن سيجفِّف دموعك؟

*

جدتك وفريدة يحضران ، يرتّبان ويقيسان بالأمتار والأقدام أطوال الجدران ، السقوف والسطوح . اشتريا ، غيّرا ، باعا ودبّرا ، تعبا وعادا أكثر بهجة . جميل يطلع من القطارات والسكك الحديدية ، لا يركب سيارة ولا يسقط من الفرس . يأتي مباركاً مثل جثة ، ويعود طاهراً مثل شهيد .

قالت له جدتي :

«جميل لماذا لا تتزوج مرة ثانية؟ خلِّ نورية لأولادها وتعال ، هنا ألف فتاة تريدك»

لا ينظر إليها وكأنها في الرمق الأخير :

«يعني نورية لن تدخل هذا البيت أيضاً؟»

«أنت تعرف هذا ، ليش تعذّب نفسك وتعذّبني معك؟»

«كل هذا من أجل المرحومة؟»

«والأولاد . . لو نسيت ولدك؟»

«لا ، لم أنس ، لكن نورية حامل الآن . يمه حرام عليك وعليٍّ ، أنا لن أطلقها»

«سنبحث لك أو لا ولما تأخذ النجمة الجديدة وتنقل إلى بغداد وتصير مدير شرطة كل العوائل تتمناك .»

غاب أبي . كان كربه يفرخ داخل الخمرة . بيته في الأعظمية عافه . لا يعارض ، لا يناقش ولا يعفو . وحده أمام ملابسه الرسمية : البوط الحانق ، السدارة الحزينة ، المسدس الصامت واللون الزيتوني المطبوخ ، وغرف المساجين تلدغه .

كان يذهب إليهم أحياناً ، ينظر من الكوى الصغيرة ويبتسم في الليل . ينادي عليهم واحداً بعد آخر . يغلط في الأسماء ولا يبالي . يطلق سراحه أمامهم ويحكي لهم حكاية النجمة الموعودة ، ولا أحد يعرف بماذا يجيبون عليه . فكل ذلك الحصى اللامع ، الغبار الأحمر ، الاستنطاق الليلي والصمت النهاري كان يتطاير أمامه وهو يحاول الإفلات من حديث العائلة والأولاد ، من الكلمات المجهولة التي لا يعرف إلى أين ستأخذه .

يسكر ويثرثر ويشتم ويشتهي أن يُنصت له .

كان يلزمه فم ولسان آخران ، فكل شيء كان أمامه ممنوعاً وصامتاً ، مفزعاً ومختلفاً . يبرك في الأرض أمام الأبواب الموصدة ويشتهي التهام التراب . يدور في الساحة والليل يتخلط ببصره . أهذه كربلاء أم كان ذلك صوت إقبال الشهواني الأول وعطرها الرخيص؟

كان ثملاً يقود أمه وأولاده ، زوجه وأخته ، مرضه ووساوسه وينحدر إلى تحت . يقف ويتحسّس بدنه وأعضاءه . مذاق السكر كان قوياً وجسده كان مخبولاً . يفوح وينتظر اللحظات . يرتاب في النجوم وهو ينظر إلٰهها في السماء . لا تلمع ولا تنطفىء فيخرمش حنجرته ويئنّ . يقف في باحة السجن . يردّد أسماء أولاده واحداً بعد الآخر ، واسم ذلك الذي يعيش في بطن امرأته . نورية كانت نحيفة ، بيضاء وسريعة الاشتعال . تحبه وتهيّجه . وعندما تضحك تنظر إلى جسده الذي لا يعرف إلاّ الشجار الليلي .

قال لها : «إذا جاء ولداً آخر نسميه نجماً»

«واذا بنت؟»

«أنا لا انجب بنات»

«و . . .»

«هدى هي الأخرى ولد . لا تخاف مني ولا من أي أحد» .

كان ينظر أمامه ويهبط إلى الداخل . جسد نورية كان يدخله في الدوار . ينسى كل شيء إذا دخله إلاّ تلك النجمة . هذه الباحة لم يحسب أعمدتها وغرفها . لماذا نسي هذا الأمر . . أرضها تشبه فخذ نورية وتلك العيون داخل الكوى كانت تلاحقه . أنفاسهم ، تنهّدهم

وصمتهم . تتقلص ساقاه وهو يريد التبول على الأرض . صوت بوله ثمل هو الآخر . يمشي ويبول ، يركض ويبول . لا يصرخ ولا يضحك .

السماء مخرمة وصدر إقبال . نورية وإقبال . يركض وكأن السحب سرير حريري . يطير في الهواء والعيون وراءه . لا يفتح الأبواب ولا يبتعد عنهم . سقطت السدارة من رأسه ، نزل والتقطها وركض بها .

وحيد ويتصبب عرقاً . لا أحد اقترب منه . لا العريف «جاسم» ولا رئيس العرفاء «صادق» . كان يشبه نجمة صغيرة وحيدة تبرق ، نزلت من الأفق ووقفت على صدره .

بغتةَ يبدأ صراخه . زعيق طويل ، دمدمة مخيفة ونحيب متواصل . وحده ينهمر ويهرول . يضرب رأسه بيده ولا يرى جداراً أمامه . كانت هنا الحيطان ، كانوا هم معه فإلى أين ذهب الجميع؟

يجري إلى المخزن الكبير البعيد ، يضربه بقدميه ويرفع تنكات البنزين . يمشي بها ويضعها أمامه في الساحة ، يفتحها ويفور شلال عقيقي يغيب في ثوان على الأرض ويحفر حفراً صغيرة تخمِّد التراب من حوله .

يبدأ بغمس السدارة في التنكة ويورثها . كان يعمل مثل حفار قبور . تنبت له أياد أخرى ، فيبدأ بالخلع . سرواله على الأرض يشتعل وهو يقهقه : «هذا لعادل»

تطلع النار ، تتوهَّج وتفور إلى أعلى نافورة ضياء وبيده السترة : «وهذه لإقبال»

يمسك بيده النجوم الثلاث ، تلتهب يده وتدخل النار أصابعه وهو يقطع النجوم من على الجاكيت . يصعدها لفمه . يتلعثم والنار تدخل فمه وتمس خدوده . يرمي النجوم الذهبية إلى أعلى السماء واحدة بعد الأخرى ، ويصرخ :

«خذها ، اعطها لغيري . خذها وبعها في السوق العمومي . خذها وخلّصني من لونها وشكلها وثقلها . خذها . . ألا تسمع؟»

يدخل يده في التنكة ويحرك الملابس بالسدارة :

«كانت ثقيلة على كتفي . وقبيحة في عيون الجيران . كانت . . .»

ينزع البوط ويدفعه في اللهب المتصاعد :

«وهذا لمدير الشرطة العام»

اللهب يتحرّك في مساحة الرقبة وينزل إلى الأكمام الملتهبة . الفانيلا ترمى على الأرض . وحين يبدأ بنزع لباسه الخام الطويل كانت طوابير الرجال تركض اليه . رئيس العرفاء وأنفار من الشرطة تحضنه من كل جانب . نزعوا ملابسهم ودثروه بها . جلبوا البطانيات السميكة وخراطيم المياه . بدأوا بنفض اللهب من الأصابع ومفرق الشعر . قهقهته العالية كانت منتظمة وهو يبكي :

«أريد النجمة . أمي كذبت ، المدير كذب والنجمة كذ . .»

يولول ويعيط . الرجال يطوّقونه من كل جانب بأيديهم . يطوى كما تطوى الملابس ، ويشد من الذراعين والقدمين حتى الرقبة . لا يرفس ولا يسكت . يضحك وهو يرزم إلى بغداد في سيارة الدولة . يقف على رأسه العريف جاسم وعلى جانبه نورية وأمها ، وبيدهم كتاب

الدائرة : يعفى من الخدمة الحكومية لأسباب صحية .

*

نركب الشاحنة التي تراءى لي أن أبي يقودها . عمتي في الدار الجديدة ، وجدتي تجلس بجوار السائق ، ونحن نتمايل في الخلف . تأخذنا الكنبة إلى أرجلها الخشبية وتهزّنا صناديق العروس الجديدة . نتكوَّم ، أرجلنا تريد موطىء قدم بين الأغراض . قاماتنا تنكمش تحت ثيابنا . عادل لا يلتفت إلى وراء . وأنا لا أعرف أحداً ألوِّح له بيدي .

بين الدار الجديدة التي انتقلنا اليها والمستشفى الحكومي العتيق كانت خطوات دمنا تمتد مثل شريط بدأ للتو .

هـــامـش

كتب الفصل الأخير مرتين بفاصل زمني لا يزيد عن أربعة أشهر ، كانت المخطوطة قد سلمت إلى الطبع ، ولما بعثت به إلى ناشر الطبعة الأولى ، قيل إنه وصل بعد أن تم صف الكتاب ، وإن كان قد وصل قبل صدور الكتاب . ولذلك ظهرت جميع ترجمات هذه الرواية بهذا الفصل الذي يطبع الآن في الطبعة الثانية .

ع .م ـ ك٢/ ٢٠٠٠

ترجمت حبات النفتالين إلى :

الانكليزية ، الفرنسية ، الإيطالية ، الهولندية ، الألمانية ، الإسبانية ، الكتلانية .

صدر للمؤلفة :

١ ـ افتتاحية للضحك ، قصص قصيرة ، دار العودة ، بيروت ١٩٧٣ .

٢ ـ هوامش إلى السيدة «ب» ـ قصص ، دار الآداب ، بيروت ١٩٧٧ .

٣ـ ليلى والذئب ، رواية ، دار الحرية ، بغداد ١٩٨٠ .

٤ـ حبات النفتالين ، الهيئة المصرية/ فصول ، القاهرة ١٩٨٦ ، دار الآداب ٢٠٠٠

٥ ـ مصاحبات ، قراءة في الهامش الابداعي ، دار عكاظ ، الرباط ١٩٩٣

٦ـ الولع ، رواية ، دار الآداب ، بيروت ١٩٩٥ .

٧ ـ الغلامة ، رواية ، دار الساقي ، لندن ٢٠٠٠ .

لوحة الغلاف للفنان شاكر الألوسي

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

للحياة العراقية في هذه الرواية مذاقُها الخاص: بين «أعظمية» بغداد القديمة و«كربلاء» أبي الشهداء الحسين؛ وَمَا بين الأربعينات والخمسينات مِن هذا العصر المزدحم بالتغير وبأنواع الاضمحلال والنمو. وللغة المؤلفة العراقية خصوصيتها، التي تَفْرض إحساساً بأنها طالعة من هواء الأعظمية ذاته ومن تراب مساجدها وأحواشها ومن لسان البطلة / الراوية، الطفلة ثم المراهقة، ولكنها التي تحكي الآن أشياء حَفظتْها في صندوق الذاكرة، كأنما صانتها من الاندثار ومن آفات النسيان والخلط بـ«حبات النفتلين». هي رواية، إذن، عن «الحقائق القديمة» في أعناق إنسانية بغداد العتيقة والمعاصرة، ولكنها أيضاً رواية تحكيها ذاكرة «أنثى» عربية من الأعظمية، اصطدمتْ منذ الطفولة بالوضع الذي فَرَضَه عليها وعلى بنات جنسها تراثٌ قديمٌ بكلٍّ ما فيه من حكمة وطلاوة وحنان، أو قبح وقسوة واختلال.

تُرجمتْ «حبات النفتلين» إلى اللغات الفرنسية والإنكليزية والإيطالية والهولندية والألمانية والإسبانية والكتالانية.